الاطمئنان في القرآن

بواعثه، صوره، العون عليه، صفات أهله

(تفسير موضوعي)

محمد خير رمضان يوسف

١٤٤١ هـ

الاطمئنان

في القرآن

بواعثه، صوره، العون عليه، صفات أهله

(تفسير موضوعي)

محمد خير رمضان يوسف

١٤٤١ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله على هدايته وعافيته، والصلاة والسلام على نبيِّه ورحمته إلى خلقه، وعلى آله وصحبه وكل من دعا إلى دينه.

الطمأنينة تبعث الراحة في النفس، وتشكل جانبًا كبيرًا من سعادة المرء، وتقبع في أهمِّ منطقة من الجسد، ولا تسكن إلا في أفئدة مؤمنة!

ولها بواعث، لا تستقرُّ القلوب بدونها، أولها خالقها، الذي يهب السعادة والعافية لمن شاء من خلقه، ثم كتابه العزيز، فهو شفاء للناس، وهدى ورحمة، والبشرى: الكلمة المتفائلة الجميلة، والجهاد والشهادة المبشرة بالجنة، وولاية الله، وتثبيته لعباده، ورحمته بهم، وصلاته عليهم، وعدالته، ورضاه، والحقُّ وحده تسكن إليه نفوس المؤمنين، والمغفرة، والثواب الجزيل، والعبودية...

ومما يعين على اطمئنان النفوس: ذكر الله تعالى، والتزكية، والصبر على الطاعة، والتوكل على الله، والشكر له سبحانه، والدعاء، والتحري والاطلاع، والبصيرة... وغيرها.

ومن صفات المطمئنين: عدم الخوف والحزن.

ومن صوره: الرضى، انشراح الصدر، الإيمان والعمل الصالح، الأمن والعافية، السلام، حبُّ الله، الفتح والنصر، الوحدة، العدل، صلاح البال، وأمور أخرى..

هذا وغيره مما بيَّنته في هذا البحث الفريد، مؤيَّدًا بآيات من الكتاب العزيز.

وفيه يطَّلع القارئ على معنى الاطمئنان في القرآن الكريم، وشروط الاتصاف به، ليعرف كيف يطمئن قلبه، ومتى؟

وهو تفسير موضوعيٌّ، حدوده القرآن وحده، وكفى به أصلًا ومجدًا.

وأوردت تفسير الآيات الكريمة من التفسير الذي وفقني الله لوضعه، وهو (الواضح في التفسير)، ولم أُشر إلى ذلك سوى مرة في أوله، كما استعنت بتفاسير أخرى عند اللزوم، وذكرتها في المتن أو الهوامش.

أدعو الله تعالى أن يتقبله، وينفع به، ويطمئن قلوبنا بذكره، ويبشِّرنا بجنته.

والحمد لله ربِّ العالمين.

محمد خير يوسف

إستانبول

العشر الأواخر من شهر رمضان ١٤٤١ هـ

الفصل الأول

معنى الاطمئنان

الاطمئنان والسكينة بمعنى واحد، وقد وردت الكلمتان في آيات من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: {أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [سورة الرعد: ٢٨]، وقوله: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ} [سورة التوبة: ١٠٣].

وهو راحة تغمر القلب، وأمن يجده المرء في النفس، وسعادة يشعر بها، وسلام وهناء يملأ كيانه.

ويقول الشيخ الشعراوي في خواطره التفسيرية، عند تفسير سورة الرعد: معنى الاطمئنان سكونُ القلب، واستقراره وأُنسه.

والاطمئنان بمعنى السكن ورد في المخصص، ولسان العرب، ومختار الصحاح، وتاج العروس، وغيرها. وقال في الأخير: النفس المطمئنة: التي اطمأنت بالإيمان وأخبتت إلى ربها.

وتضاف معان أخرى للسكينة، كالرزانة والوقار، كما في المعجم الوسيط. وفيه معنى الطمأنينة: الثقة، وعدم القلق.

وقال في تاج العروس: الطُّمأنينة والوَداعُ والقرارُ والسُّكونُ: الذي يُنزِلُه الله تعالَى في قلبِ عبده المؤمنِ عند اضطرابه من شدَّةِ المخاوف، فلا ينزعجُ بعد ذلك، لما يرد عليه ويوجِبُ له زيادة الإيمانِ وقوَّةَ اليقينِ والثَّبات.

ولنعلم أن الجوَّ العام في الحياة الدنيا لا يبعث على الاطمئنان، لأنها حالة مؤقتة لإجراء اختبار على الناس وتنتهي، فلا قرار لها، وفناؤها مكتوب فيها.

وهي حياة صراع بين الخير والشرّ، وبين الحقّ والباطل، وبين بني آدم وإبليس وجنده. وقد أنزل الله آدم عليه السلام وإبليس اللعين من الجنة إلى الأرض عدوّين لبعضهما البعض. ويكون الإنسان على حذر دائم منه لئلا يغلبه. قال الله تعالى: {وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [سورة البقرة :٣٦].

ولكن المقصود الاطمئنان في القلب، إلى العقيدة الصحيحة، والرضا بما قدَّره الله، وطاعته، وذكره وشكره، حبًّا له، وتعظيمًا لشأنه سبحانه، ولأنه يستحق ذلك، فهو الإله المعبود بحق، ربُّ العالمين كلهم. ثم شوقًا إلى لقائه، وطمعًا في جنته.. وكل هذا يشعل قلب المؤمن بالشوق والحب والأمل، ويبعث على راحة البال، والسعادة في الحال، في طاعة وخشوع وتبتل.

فالتركيز في هذا البحث على معنى (الراحة النفسية) التي يجدها المسلم نتيجة إيمانه وآثاره، وكلما كان إيمانه قويًّا كان اطمئنانه أوضح وأكثر.

والاطمئنان له علاقة بمصطلحات أخرى تحوم حول معناه، خاصة وعامة، ومن جوانب.

وهو قريب من معنى (راحة البال)، ومن (العافية)، و(السعادة)، ولكن هذه الأخيرة أشمل. والاطمئنان جانب كبير منها، أو هو أولها.

فهذه الأخيرة تشمل النواحي المالية والمعيشية أيضًا، والاطمئنان لا يلزم فيه هذا، فقد يكون المؤمن فقيرًا أو مصابًا وقلبه مطمئن، رضًى بقدر الله، ومسلِّمًا بقضائه، ومنتظرًا رحمته بصبر وإيمان واحتساب.

الفصل الثاني

الاطمئنان للقلوب المؤمنة

في القرآن الكريم تصريح بأنه هداية للمتقين: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [سورة البقرة: ٢] أي: نورٌ وتبيانٌ للمتَّقين، الذين يعملون بطاعةِ الله ويَحذَرون عقوبتَه، ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء فيه، أما غير المؤمنين فلا يعمل فيهم؛ لأنهم أغلقوا أسماعهم وأبصارهم عن فهمه واستيعابه، وبذلك يكونون أبعد عن الاطمئنان إليه وبه.

إن في قلوبهم علَّة تبعدهم عن القرآن ونوره المبين، سمّاها الله مرضًا: {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا} [سورة البقرة: ١٠]. أي: في قلوبهم علَّة جعلتهم يَحيدون عن الحقِّ ويُصرُّون على موقفِهم، فزادهم اللهُ بذلك علَّةً، فإنَّ الانحرافَ يَكْبُر، والمرضَ يزدادُ مع الإصرار، فشكُّوا ولم يحاولوا الإيمان..[1].

وهؤلاء الذين يعيشون في ضلال مستمرّ يتقلبون في أوحال الجهل والعمى، ولا تستقرّ نفوسهم على فكر أو عقيدة يطمئنون إليها، لأنها ظنون واستنتاجات ونظريات لا قاعدة ولا استقرار لها. وقد وصف الله حالتهم في الضلال بأنهم {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ} [سورة البقرة: ١٨]، فقد عطَّلوا وظائفَ آذانهم وألسنتِهم وعيونِهم؛ فلا يسمعون خيرًا، ولا يتكلَّمون بما ينفعُهم، ولا يرَون الحقّ.

ومن أين يأتي الاطمئنان وراحةُ البال إلى هؤلاء إذا كانوا على هذه الصفة؟

وقد ضرب الله مثلًا لأهل الضلال، الذين آثروا الباطل على الحق، والضلال على الهدى، وصوَّر حالتهم التي آلت إلى تخبط وتحيّر وعمى، فقال سبحانه: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اُسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ} [سورة البقرة: ١٧]

---

(١) ينظر الواضح في التفسير/ محمد خير يوسف. وتفسير الآيات كلها من هذا المصدر، إلا أن يشار إلى غيره.

أي: مثَلُ هؤلاء الذين عدَلوا عن الهُدَى إلى الضَّلال، وآثروا العمَى على التبصُّر، كمثَلِ رجلٍ أوقدَ نارًا في ليلٍ مدلهمّ، فلمَّا أضاءتِ النارُ ما حولَها وانتفعَ بها مُوقِدُها، وأبصرَ بها ما حولَهُ واستأنسَ بها، إذا بها طُفِئت، فصارَ في ظلامٍ شديدٍ، لا يُبصرُ ولا يَهتدي!.

والمنافقون كذلك، رأوا نورَ الإسلامِ فآمنوا، ثم انقلبوا على وجوهِهم يَخبِطُون حائرين، مُؤثِرين الضلالَ على الهُدَى بعدما تبيَّنوه. {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ} [سورة المنافقون: ٣].

فكان جزاؤهم أن أذهبَ الله عنهم ما ينفعُهم، وهو النور، وأبقَى لهم ما يضرُّهم، وهو الإحراقُ والدُّخان، وتركهم في ظلمات الشكِّ والكفرِ والنِّفاق، لا يَهتدون إلى سبيلِ الخير.

ومثال آخر، أوضح وأشدُّ قوة، قوله تعالى: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} [سورة البقرة: ١٩]

أي: حالُ هؤلاءِ أيضًا في شكِّهِم وكفرهم وتردُّدِهم، كمثَل مطرٍ هطلَ من السماءِ في ليلٍ مظلم، فيه رعدٌ قويٌّ مخيف، وبرقٌ يُضيءُ في لمعانٍ شديد، فصاروا يجعلون أصابعَهم في آذانِهم حذرًا من أن يصيبَهم شيءٌ من آثارِها فيموتوا، وهو لا يُجدي عنهم حذرًا، فاللهُ محيطٌ بهم بقدرته، وهم تحت مشيئته وإرادتِه.

وتشبيهُ أوجُهِ المثَل: حالُ الظلماتِ هي الشكوكُ، والكفرُ، والنِّفاق.

والرعدُ هو ما يُزعجُ القلوبَ من الخوف، فإنَّ شأنَ المنافقين الخوفُ الشديدُ والفزَع.

والبرقُ هو ما يَلمَعُ في قلوبِ هذا القسمِ من المنافقين في بعضِ الأحيانِ من نورِ الإيمان.

{يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ} [سورة البقرة: ٢٠].

أي: يكادُ هذا البرقُ لشدَّتهِ وقوَّتِهِ أن يستلبَ أبصارَهم؛ فإذا أضاءَ لهم مشَوا فيه، وإذا أظلمَ عليهم وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون.

والبرقُ كنايةٌ عن شدَّةِ ضوءِ الحقِّ، وأنَّهم إذا ظهرَ لهم من الإيمانِ شيءٌ استأنسوا به واتَّبَعوه، وتارةً تَعرِضُ لهم الشكوكُ فتُظلمُ قلوبُهم ويَقَفون حائرين!

ولو شاءَ اللهُ لأخذَ سمعَ المنافقين وأبصارَهم، لأنَّهم تركوا الحقَّ بعد معرفته، وهو إذا أرادَ بعبادهِ نقمةً كانَ قادرًا على إنفاذها.

وصوَّر حالتهم النفسية في الحياة الدنيا بدقة، فقال سبحانه: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [سورة طه: ١٢٤].
أي: من خالفَ هُداي، وكذَّبَ رسلي، فإنَّهُ يعيشُ في الدُّنيا حياةَ قلقٍ وحَيرة، وشكٍّ وحرج، وضيقٍ وشقاء، وإنْ بدا متنعِّمًا. ويُضيَّقُ عليه في قبرِه، ويُحشَرُ يومَ القيامةِ أعمى البصر...
وما يُرى من ظاهر سعادة لهم فإنما هو ابتلاء لهم ليزدادوا به عذابًا: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} [سورة طه: ١٣١].
أي: لا تُطِلْ نظرك رغبةً وميلاً إلى ما أمددنا به أصنافًا من الكفَّارِ من زينةِ الدُّنيا وبهجتها، من كثرة المالِ والولد، لنبتليَهم بها، ونعذِّبَهم بها في الآخرة.

والمؤمنون يعرفون لذة الإيمان واطمئنان قلوبهم به، ولذلك فهم يدعون الله أن يثبتهم عليه، ولا يزيغ قلوبهم عنه. قال سبحانه في دعائهم: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ} [سورة آل عمران: ٨] .
فيقولُ الراسخون في العلم، ويقولُ معهم كلُّ مؤمن: اللهمَّ إنّا نسألكَ ألاّ تُميلَ قلوبنا عن الحقِّ والهُدَى بعد أن أقمتَها عليه، ولا تجعلنا مثلَ الذين في قلوبهم زيغٌ فيتَّبعون ما تشابهَ من القرآنِ ويذَرون مُحْكَمه، وأعطِنا من عندك رحمة واسعة تثبِّت بها قلوبنا على الهُدَى والصراط المستقيم، فأنت الواهبُ المنعِم، الهادي إلى الهُدَى والإيمان.

والإيمان يكون شاملًا لأركانه حتى يكون مقبولًا، ونافعًا لصاحبه، ليكون معدودً من المسلمين.
ومن ذلك الإيمان بالقضاء والقدر، فيما يناسب موضوعنا، فإن هذا يخفف من وطأة الابتلاءات وصروف الحياة على المسلم، ويطمئنُ قلبه بأنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، وأن ما قدَّره ربه عليه خير له ولو لم يعرف الحكمة مما يراه ويلمسه، هذا بعد الأخذ الأسباب، وتفويض الأمر لله.

يقول الله تعالى: {قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [سورة التوبة: ٥١].

أي: لن يصيبَنا شيءٌ أبداً إلاّ ما قدَّره الله علينا، فنحن تحت مشيئتهِ وإرادتِه، فهو ناصرُنا وحافظُنا، ومَلجؤنا وسيِّدُ أمورنا، وعلى اللهِ وحده فليعتمدِ المؤمنون، فهو حسبهم ونعم الوكيل.

وفي حديث صحيح رواه الترمذي وغيره: "إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنتَ فاستعِنْ بالله، واعلمْ أنَّ الأمةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعوكَ بشيءٍ لم ينفعوكَ إلا بشيءٍ قد كتبهُ اللهُ لك، وإنِ اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيءٍ لم يضرُّوك إلا بشيءٍ قد كتبهُ اللهُ عليك".

ويتخلص المؤمن بهذا الإيمان من هواجس ووساوس كثيرة في تقلبات الحياة، وما يعتريه من ظروف العمل ومخالطة الناس والتعامل مع صنوف شتى من البشر، فيقلب الأمور على وجوهها، ويتمنى لو فعل كذا ولم يفعل كذا، ولو أنه قال ولم يقل... في منظومة لا تنتهي من الأفكار والهواجس.

يقول رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام ناصحًا أمته: "احرِصْ على ما ينفعُك، واستعِنْ باللَّهِ ولا تعجِزْ، وإن أصابكَ شيءٌ فلا تقلْ لو أنِّي فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّرَ اللَّهُ وما شاءَ فعل، فإنَّ (لو) تفتحُ عملَ الشَّيطان". (صحيح مسلم ٢٦٦٤).

ويبيّن الله الحكمة من ذلك، ويوجِّه إليه نظر المسلم، ويصحح فكره، فيقول:

{مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [سورة الحديد: ٢٢]

أي: ما حدثَ في الأرضِ من مصيبة، كقحط، وطوفان، وزلزال، وغيره، وفي أنفسكم: كهمٍّ، ومرضٍ، وفقدِ أولاد، وغيره، إلاّ وهي مكتوبةٌ في اللَّوحِ المحفوظِ قبلَ أن نخلقَ الخلق. وهذا سهلٌ يسيرٌ على الله، فعلمهُ محيطٌ بكلِّ شيء، ما كان وما يكون.

{لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [سورة الحديد: ٢٣]

أي: أعلَمناكم بذلكَ حتَّى لا تحزنوا وتأسفوا على شيءٍ فاتكم من نعيمِ الدُّنيا، فإنَّهُ لو قُدِّرَ لكم أمرٌ لكان، وحتَّى لا تفرحوا وتَبطَروا بما أعطيناكم منها، فإنَّما هو ممَّا قدَّره اللهُ لكم من رزق،

فاشكروهُ على ذلك، ولا تفخَروا ولا تأشَروا، فإنَّ الله يبَغَضُ المتكبِّرَ في نفسه، المفتخرَ على غيرِهِ بمالهِ وجاهه.

ذُكِرَ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما قولُه: ليس من أحدٍ إلاّ وهو يحزنُ ويفرح، ولكنَّ المؤمنَ يجعلُ مصيبته صبرًا، وغنيمتَهُ شكرًا.

والمؤمنون أبعد الناس عن الأمراض النفسية واليأس والإحباط، فهم يعملون، ويتوكلون على ربهم، ويفوضون أمورهم إليه، ويدركون أن ما قدَّره الله لهم بعد ذلك هو خير لهم، فتطمئن قلوبهم بذلك. والكافر ليس لديه هذا الإيمان.

وفي قصة يوسف عليه السلام، أمر يعقوب بنيه أن يبحثوا عن يوسف وأخيه بنيامين حتى يطمئنوا، ولا ييأسوا، فاليأس ليس من صفات المؤمنين: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [سورة يوسف: ٨٧].

أي: لا تقطعوا الرَّجاءَ والأملَ من فرجِ اللهِ ورحمته، إنَّه لا يَقنَطُ من فرجِ اللهِ – ولو أحاطَ بهم الكرْبُ – إلاّ الكافرون؛ لإنكارِهم سَعَةَ رحمةِ الله، واستبعادِهم عفوَه.

الفصل الثالث

بواعث الاطمئنان

الله!

الله وحده تطمئن إليه قلوب الناس عند الشدائد، والمؤمنون قلوبهم متعلقة به سبحانه في كل حين، فهي مطمئنة به وقت الشدة والعافية، لا تتغير.

الله وحده ملجأ الناس إذا ضاقت بهم الأرض على وسعها، وإذا اشتدت عليهم الشدائد، ورأوا أنه لا معين إلا الله، وأن لا منقذ إلا هو، وأن قوة الإنسان ومكائده وآلاته لا تنفعهم مهما بلغت، فلا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه! وأن القلوب تطمئن فقط إلى خالق الإنسان، وخالق هذا الكون العظيم، الذي بيده مفاتيح السماوات والأرض، ويصرّفها كيف يشاء، والذي يقول للشيء كن فيكون.

آيات عظيمة تذكّر بهذا في كتاب الله الكريم.

تذكَّروا أيها البشر: من يخلّصكم من الشَّدائدِ والأهوالِ التي تصيبُكم إذا كنتم مسافرين في البحرِ فأحاطت بكم الأمواجُ من كلِّ مكان، وقذفتكم الرياحُ العاتيةُ في وسطِ البحر، أو في صحارى ومهامهِ البرّ، أو الجبالِ العاليةِ والأوديةِ العميقة، أو وقعتْ أحداثٌ طبيعيةٌ بقضاءِ اللهِ وقدَره، فاهتزَّتِ الأرض، وانفجرتِ البراكين، وهاجتِ الأعاصير، أو لازمتكم الأمراضُ ولا علاج، فتلجؤون إليه وتستغيثون به سرّاً وإعلاناً، قلباً ولساناً، مخلصين له الدِّين، لا تَدْعون غيرَه، وتقولون: لئن أنجانا اللهُ من هذا الكربِ والضائقةِ لقدَّرنا نعَمهُ الجليلة، وقمنا بحقِّها كما ينبغي، حامدين شاكرين:

{قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [سورة الأنعام: ٦٣].

{قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [سورة المؤمنون: ٨٨]: من الذي يؤمّنُ من شاءَ من السُّوءِ ويحميهِ من المكارِه، ولا يَمنعهُ أحدٌ من الأمرِ الذي قدَّرهُ عليه والسُّوءِ الذي أرادَ به؟

فهو وحده سبحانه الذي تُرفع له الأكفّ، هو المقصود بالحاجات، هو المنعِم، هو المنقِذ، هو الله... ولذلك تكون العبادة له وحده، فهو المعبودُ بحقّ، لا سواه.

قال ربُّنا سبحانه: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [سورة الأنعام: ١٠٢]

أي: ذلكمُ اللهُ ربُّكم، مالكُ أمركم، الواحدُ الذي لا شريكَ له، خالقُ كلِّ شيء، ممّا كانَ وسيكون، فاعبدوهُ ولا تشركوا به شيئاً، فهو وحدَهُ المستحقُّ للعبادة، وهو الحفيظُ والرَّقيبُ على كلِّ الأشياء، يَعرفُ أحوالَها ويدبّر شؤونها، ويتولَّى جميع أمورها.

القرآن:

١- القرآن شفاء.. يبعث على الاطمئنان:

سورة الفاتحة تبعث على الاطمئنان؛ لأنه يُستشفَى بها، فهي رُقية، كما صحَّ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في قوله لصحابي، وقد قرأ بها على لديغ وشُفي: "وما أدراكَ أنها رُقْيَة"؟ (صحيح البخاري ٥٧٣٦).

وهكذا كل آية أو سورة تكون من أذكار الصباح والمساء، أو تُقرأ للرقية، تبعث على الاطمئنان في قلب المسلم، لأنها من كلام الله تعالى، والمسلم يثق به ويقدّسه.

والقرآن حق، تُخبت له القلوب وتَخشع، فتَسكن وتَطمئن، لأنه كلام ربِّ العالمين، يقول الله سبحانه: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ} [سورة الحج: ٥٤]، أي: ليَعلمَ العلماءُ المخلَصون الثابتون على الحقّ، أنَّ ما أوحينا إلى رسولنا وأثبتناهُ في القرآن، هو الحقُّ المنزَلُ من ربِّهم، فيؤمنوا به ويصدِّقوه، فتَسكُنَ له قلوبُهم وتَخشعَ له.

والقرآن كله يبعث على الراحة والطمأنينة؛ لأنه شفاء للناس بنص القرآن الكريم، وكلُّ شفاء فيه روح التفاؤل والاطمئنان.

وقد ورد ذكر القرآن وأنه شفاء في أكثر من آية، منها قوله تعالى:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [سورة يونس: ٥٧].

أي: فيه تذكرةٌ من ربّكم، ممّا يُلِينُ القلوبَ بالترغيبِ وذكرِ حُسنِ الثواب، وبالترهيبِ وبيانِ سوءِ العِقاب، وفيه دواء من الجهلِ والشُّبَهِ والشُّكوك، وهُدًى من الضَّلالة، ورحمةٌ وإحسانٌ للمؤمنين خاصَّة، فيَزيدُهم إيمانًا، ويبشِّرهم بالجزاءِ الحسن.

وذكر الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله في تفسيره أن حقيقة الشفاء هي زوال المرض والألم، ومجازه زوال النقائص والضلالات وما فيه حرج على النفس، وهذا هو المراد هنا.

قال: والمراد بالصدور النفوس كما هو شائع في الاستعمال.

ثم بيَّن المقصود بالشفاء هنا فقال: أومأ وصفُ القرآن بالشفاء إلى تمثيل حال النفوس بالنسبة إلى القرآن، وإلى ما جاء به بحال المعتلِّ السقيم الذي تغير نظامُ مزاجه عن حالة الاستقامة فأصبح مضطرب الأحوال، خائر القوى، فهو يترقب الطبيب الذي يدبر له بالشفاء، ولا بدَّ للطبيب من موعظة للمريض يحذره بها مما هو سببُ نشءِ علَّته ودوامِها، ثم ينعت له الدواء الذي به شفاؤه من العلَّة، ثم يصف له النظام الذي ينبغي له سلوكه لتدوم له الصحة والسلامة ولا ينتكسَ له المرض، فإن هو انتصح بنصائح الطبيب أصبح معافى سليماً، وحييَ حياة طيبة لا يعتوره ألم ولا يشتكي وَصَبًا.

قال: فزواجرُ القرآن ومواعظه يُشبَّه بنصح الطبيب على وجه المكنية، وإبطالُه العقائد الضالة يشبه بنعت الدواء للشفاء من المضارِّ على وجه التصريحية، وتعاليمُه الدينية وآدابه تشبَّه بقواعد حفظ الصحة على وجه المكنية...

ثم إن ذلك يتضمن تشبيه شأنَ باعثِ القرآن بالطبيب العليم بالأدواء وأدويتها، ويقوم من ذلك تشبيه هيئة تلقي الناس للقرآن وانتفاعهم به ومعالجةِ الرسول إياهم بتكرير النصح والإرشاد بهيئة المرضى بين يدي الطبيب وهو يصف لهم ما فيه بَرْؤهم وصلاحُ أمزجتهم، فمنهم القابل المنتفع، ومنهم المتعاصي الممتنع(٢).

والآية الثانية: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً} [سورة الإسراء: ٨٢].

---

(٢) التحرير والتنوير، عند تفسير الآية المذكورة.

أي: ننزِّلُ من القرآنِ ما يكونُ شفاءً وعلاجًا لأمراضِ النفسِ والقلب، من ضلالةٍ وجهالة، ووسوسةٍ وشكّ، وزيغٍ وقلق، وهوًى وطمع، وانحرافٍ وزلل، فيُسكِّنُ النفس، ويُطَمْئِنُ القلب.
وهو رحمة، ففيه الإيمانُ الصحيح، والدَّليلُ إلى الحقّ، والثَّباتُ عليه، والرَّغبةُ في الخيرِ والعملِ الصَّالح، والتَّمهيدُ إلى رِضَى اللهِ ودخولِ جنَّته.
وهذا كلُّهُ للمؤمنين بالقرآن، المتَّبِعين لهَديه، الذين جعلوهُ دستورًا لهم، يتحاكمون إليه، ويجتمعون عليه.
أمَّا الكافرونَ به، فليسَ القرآنُ شفاءً لهم ولا رحمَة، فهم يكفُرونَ بمُنزِله، ويُكذِّبونَ المنزَلَ عليه، فيزدادونَ ضلالًا، وظلمًا وفسادًا، لبُعدِهم عنه ومُناقضتِهم لأحكامه، فهم خائبون خاسرون.
قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله: بيان لوظيفة القرآن، فهو شفاء ورحمة لمن يؤمنون به، وهو عذاب ونقمة على من يكذبون. فهم في عذاب منه في الدنيا، ويلقون العذاب بسببه في الآخرة(٣).
ويتساءل الشيخ الشعراوي رحمه الله في خواطره التفسيرية: هل شفاء القرآن شفاءٌ معنويٌّ لأمراض القلوب وعِلَل النفوس، فيُخلِّص المسلم من القلق والحَيرة والغَيْرة، ويجتثُّ ما في نفسه من الغلِّ والحقد والحسد، إلى غير هذا من أمراض معنوية، أم هو شفاء للماديات ولأمراض البدن أيضاً؟
والرأي الراجح، بل المؤكد الذي لا شَكَّ فيه، أن القرآن شفاء بالمعنى العام الشامل لهذه الكلمة، فهو شفاء للماديات كما هو شفاء للمعنويات، بدليل ما رُوِي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (وساق حديث اللديغ الذي شُفي بالقرآن).
ثم قال بأسلوبه الممتع وأمثلته الواقعية: فشفاء أمراض البدن شيء موجود في السُّنة، وليس عجيبة من العجائب؛ لأنك حين تقرأ كلام الله فاعلم أن المتكلم بهذا الكلام هو الحق سبحانه، وهو ربُّ كل شيء ومليكه، يتصرّف في كونه بما يشاء، وبكلمة كُنْ يفعل ما يريد، وليس ببعيد أن يُؤثّر كلامُ الله في المريض فيشفى.
ولما تناقشَ بعضُ المعترضين على هذه المسألة مع أحد العلماء، قالوا له: كيف يُشفَى المريض بكلمة؟ هذا غير معقول، فقال العالم لصاحبه: اسكت أنت حمار!! فغضب الرجل، وهمَّ بترك

(٣) في ظلال القرآن، عند تفسير الآية.

المكان وقد ثارت ثورته، فنظر إليه العالم وقال: انظر ماذا فعلتْ بك كلمة، فما بالُكَ بكلمة المتكلّم بها الحق سبحانه وتعالى؟[٤].

والآية الثالثة قوله تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ} [سورة فصلت: ٤٤].

أي: إنَّ هذا القرآنَ كتابٌ يَهدي القلوبَ إلى الحقِّ والصَّواب، ويَشفي الصُّدورَ من الشُّكوكِ والشُّبهات.

والذين لا يؤمنون به بعيدون عنه فلا يسمعونه، وكأنَّ في آذانهم ثقلاً وصممًا فلا يفهمون ما فيه، وإذا كان للمؤمنين شفاءً فهو على الكافرين عمًى، فلا يهتدون إلى الحقِّ والبيانِ الذي فيه، ولا ينتفعون به، وهم كمن يُنادَى من بعيدٍ فيَسمعُ الصَّوتَ ولا يتبيَّنُ المعنى.

وقال الشوكاني في معنى كون القرآن شفاء: أي يهتدون به إلى الحق، ويشتفون به من كل شك وشبهة، ومن الأسقام والآلام[٥].

وقال القاسمي في تفسيره: هو للمؤمنين بالغيب هداية تهديهم إلى الحق، وتبصّرهم بالمعرفة، وشفاء يزيل أمراض قلوبهم من الرذائل، كالنفاق والشك، أي: تبصّرهم بطريق النظر والعمل، فتعلمهم وتزكيهم[٦].

وفصَّله الشيخ إسماعيل حقي فقال: إنه شفاء لما في الصدور من شكٍّ وشبهة، أو شفاءٌ حيث استراحوا به من كدِّ الفكرة وتحيُّر الخواطر، أو شفاءٌ لضيق صدور المريدين، لما فيه من التنعم بقراءته والتلذذ بالتفكر فيه، أو شفاءٌ لقلوب المحبين من لواعج الاشتياق، لما فيه من لطائف المواعيد، أو شفاءٌ لقلوب العارفين، لما يتوالى عليها من أنوار التحقيق وآثار خطاب الربِّ العزيز. وبيَّن أن القرآن يكون عمًى على الكفار المعاندين لتصامهم عن سماعه، وتعاميهم عما يريهم من الآيات... وفي "المفردات": محتمل لعمَى البصرِ والبصيرة جميعًا[٧].

---

(٤) خواطر الشيخ محمد متولي الشعراوي، عند تفسير الآية.

(٥) فتح القدير، عند تفسير الآية.

(٦) محاسن التأويل.

(٧) تفسيره روح البيان.

وقال صاحب الظلال رحمه الله: هذا الكتاب هدى للمؤمنين وشفاء، فقلوب المؤمنين هي التي تدرك طبيعته وحقيقته، فتهتدي به وتشتفي. فأما الذين لا يؤمنون فقلوبهم مطموسة لا تخالطها بشاشة هذا الكتاب، فهو وقرٌ في آذانهم، وعمًى في قلوبهم. وهم لا يتبينون شيئًا؛ لأنهم بعيدون جدًّا عن طبيعة هذا الكتاب وهواتفه.

ويجد الإنسان مصداق هذا القول في كل زمان وفي كل بيئة. فناس يفعل هذا القرآن في نفوسهم فينشئها إنشاء، ويحييها إحياء، ويصنع بها ومنها العظائم في ذاتها وفيما حولها. وناس يثقل هذا القرآن على آذانهم وعلى قلوبهم، ولا يزيدهم إلا صممًا وعمًى. وما تغيَّر القرآن. ولكن تغيرت القلوب. وصدق الله العظيم(٨).

٢- القرآن هداية ورحمة

وكيف لا يكون القرآن شفاء ورحمة وهو يهدي إلى أنجح السبل؟: {إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [سورة الإسراء: ٩].

أي: إنَّ هذا القرآنَ يُرشِدُ الناسَ إلى أحسنِ الطُّرقِ وأصلحها، وأوضحِ السُّبُلِ وأبيَنِها، في جميعِ شؤونهم، فهو نظامُ حياةٍ شامل.

{وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [سورة النمل: ٧٧].

أي أن القُرآنَ هدايةٌ لمن يؤمنُ به، فيُرشدُهم إلى الطَّريقِ الحقّ، ورحمةٌ لهم وسعادةٌ في الدَّارَين، فيأخذُهم إلى الفوزِ والظَّفَر.

ووصفٌ عظيمٌ لكتابه الكريم: {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [سورة الجاثية: ٢٠].

أي أن هذا القرآنَ معالمُ للنَّاسِ ودلائلُ لهم في الحقّ، يبيّنُ لهم الأمورَ على حقيقتِها، ويَهديهم إلى ما فيه فوزُهم وفلاحُهم، ورحمةٌ عظيمةٌ لهم، لمن صدَّقَ به، وتيقَّن أنه من عند اللهِ العليمِ الحكيم.

وبالهداية تنشرح الصدور، وتطمئن القلوب، وتعمَّر النفوس، وتُبنى الأمم على خير أساس. وبالكفر تُظلم القلوب، وتَقلق وتتشاحن..

---

(٨) في ظلال القرآن، عند تفسير الآية الكريمة.

يقول عزّ مِن قائل: {فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [سورة الأنعام: ١٢٥].

أي: إذا أرادَ اللهُ أن يَهديَ امرءاً ويعرّفه طريقَ الحقّ، يسَّرَ له أسبابَ الهداية، وشرحَ صدره للإسلام، وفتحَ قلبهُ للإيمان، وحبَّبَ إليه العملَ الصالح. ومن أرادَ له الضَّلالةَ ضيَّقَ صدره لقبولِ الحقِّ حتَّى لا يجدَ الخيرُ مَنفَذاً إليه، ولا الإيمانُ نوراً إليه، فيكونُ كمن يحاولُ الصُّعودَ إلى أعلى، فهو يجدُ مشقَّةً بالغةً وتعباً في إدراكِ ذلك، أو كأنَّما يرتفعُ في السماءِ فينقُصُ عليه الأكسجين، فيشعرُ بضيقٍ وحرجٍ في تنفُّسه. وهو ثابتٌ علميًّا.

وكما جعلَ اللهُ الضِّيقَ في صدورِ من أرادَ له الضَّلالة، كذلكَ يجعلُ اللَّعنةَ والعذابَ والخذلانَ على من أبَى الإيمانَ وأصرَّ على الكفر.

قال الله تعالى بعد هذه الآية: {وَهَـذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} [سورة الأنعام: ١٢٦].

أي: هذا الذي جاءَ به الإسلامُ أيُّها النبيّ، هو صراطُ اللهِ المستقيم، وطريقهُ القويم، وهدايتهُ التي رضيَها للنَّاس، فلا اعوجاجَ فيها ولا انحراف، قد بيَّنا الآياتِ ووضَّحناها، لمن وعَى وتدبَّر، وعقَلَ عن اللهِ ورسوله.

وجزاؤهم على هذا: {لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة الأنعام: ١٢٧]

أي: لهؤلاءِ المؤمنين الواعين يومَ القيامة، جنَّةُ اللهِ الخالدة، السَّالمةُ من المنغِّصاتِ والآفات، واللهُ حافظُهم وناصرُهم، جزاءَ سلوكِهم الصِّراطَ المستقيم، وامتثالِهم أمرَ ربِّهم.

أمثلة تبعث على الطمأنينة:

لجوء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغار في طريق هجرته إلى المدينة المنورة، والمشركون يبحثون عنه في كل بقعة هناك، حتى وصلوا إلى الغار نفسه، لم يكن سهلًا، ولكن الله طمأنه، وأنزل عليه السكينة حتى هدأ واطمأن قلبه، صلى الله عليه وسلم، فما أنجاه منهم إلا الله:

{إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا} [سورة التوبة: ٤٠]

أي أن الله تولَّى نصرَهُ عندما تسبَّبَ الكفّارُ في إخراجهِ من مكَّة، فأذِنَ له بالخروجِ من بينهم عام الهجرة إلى المدينة، ومعه صاحبهُ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضيَ الله عنه، وكان يخافُ عليه من المشركين، الذين تتبَّعُوا أثرهُ ليقتلوه، فقالَ له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في الغارِ وهو يسكِّنهُ ويثبِّته: "يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنينِ اللهُ ثالثُهما"؟

فأنزلَ الله أمنَهُ وطمأنينتَهُ على رسوله، وأيَّدَهُ بالملائكةِ يحرسونَهُ ويثبِّتونه، وأحبطَ تدبيرَ الكفّارِ ومكرَهم، وأفشلَ مؤامرتَهم في قتله...

وهؤلاء الذين تخلَّفوا عن الجهاد بدون عذر، حكى الله قصتهم، وأشار إلى الضيق الذي أصابهم عندما هجرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجميعُ المسلمين، فكانوا يلتجؤون إلى الله وحده ليتوب عليهم، ويرضى عنهم، حتى يعودوا إلى الحياة الإسلامية مثل غيرهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم... ثم كان الفرج!

{وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [سورة التوبة: ١١٨]

لقد تابَ اللهُ على الثلاثةِ من الصَّحابةِ الذين تخلَّفوا عن غزوةِ تبوكَ تكاسلاً لا نفاقًا، وقد تابُوا إليه. وتأخَّرَ نزولُ توبتِهم عن آخرين ممَّن ربطوا أنفسَهم بسواريّ المسجدِ حتَّى يتوبَ اللهُ عليهم، فتابَ عليهم، وبقيَ أمرُ الثلاثةِ معلَّقًا، حيثُ لم يفعلوا مثلما فعلوا. وأمرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بالإعراضِ عنهم، وعدمِ مجالستِهم ومحادثتِهم. وتأخَّرَ أمرُهم إلى أن ضاقت عليهم الأرضُ على رَحْبِها وسَعَتِها، وضاقت قلوبُهم، وامتلأت نفوسُهم حزناً وغمًّا، وتحيَّروا، فلا يدرون ما يصنعون، وعلموا أنَّهُ لا ملجأ من سخطِ اللهِ إلاّ بالإنابةِ إليه، والصَّبرِ على قضائه، والاستكانةِ إليه، وانتظارِ الفرجِ من عنده، ثمَّ وفَّقهمُ اللهُ للتَّوبةِ والثباتِ عليها إلى أن أنزلَ قبولَ توبتِهم؛ لصدقِ مقالِهم، وإخلاصِهم، واللهُ كثيرُ قبولِ التوبةِ من عباده، رحيمٌ بهم، فلا يعذِّبُهم بذنوبِهم بعد قبولِ توبتِهم، ولو كانت كثيرة.

البشرى:

ومن بواعث الاطمئنان: البشرى.

فإن البشرى كلمة جميلة، وهي تبعث على التفاؤل، والمحبة، وإظهار الفرح. هذا إذا كانت البشرى من الإنسان، فكيف إذا جاءت من الله تعالى؟ إنها سعادة عظيمة، وبهجة في القلب لا تقدَّر مساحتها! وفيها سكن، وغبطة، وراحة بال، واطمئنان أكيد، لأن المصدر أوثق ما يكون، وآكد ما يعتبر.

١- وأول البشرى هو الجزاء الحسن على الإيمان والعمل الصالح، وهو الجنة، أمل العباد المؤمنين. فهذا يطمئن المؤمنين على مصيرهم الذي ينتظرونه.

قال الله تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} [سورة البقرة: ٢٥].

فهؤلاء المؤمنون الطيبون، الذي أطاعوا الله فيما أمر، وانتهوا عنا نهى، في يوم الحساب العسير يُلقى عليهم الخبر السارُّ المفرح، بأنَّ لهم جِنانًا كبيرةً رائعة، تجري من خلالها المياهُ العذبة..

وقد وصف الله تعالى جانبًا من **فرح المؤمنين بما أعدَّ لهم من الجنان** وكيف أنهم يستبشرون بذلك، فقال في سورة عبس (٣٨ - ٣٩): {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ} أي: وجوهُ المؤمنين السُّعداءِ يومئذٍ مستنيرةٌ متهلِّلة، {ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ}: فَرِحَةٌ مسرورة؛ لِما يرون من النَّعيمِ وما يُبهِجُ القلب.

٢- والبشرى للصابرين على البلاءِ الذي يصيبهم في الدنيا، والرضا بقضائه وقدره: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} [سورة البقرة: ١٥٥].

لقد فازوا وأحرزوا الأجر على صبرهم.

٣- وبشرى لمن اجتنب الشرك واتبع ما أنزل الله: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ} (سورة الزمر: ١٨].

فهم الذين يستمعون القرآنَ وغيره، فيؤثِرون كتاب ربِّهم ويتَّبعونه، أو أنَّهم يتَّبعون أحسنَ ما يُؤمَرون به فيَعملونه، فأولئكَ الذين هداهم اللهُ إلى دينه، وإلى ما فيه الثوابُ العظيم، وأولئكَ أصحابُ العقولِ الصَّحيحة، والفِطَرِ السَّليمة.

٤- والقرآنُ العظيم نفسه بشرى للمؤمنين؛ لأنه يبشّرهم بالجنة، قال الله تعالى: {نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [سورة البقرة: ٩٧].

{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [سورة النحل: ٨٩]

ففيه هدايةٌ للقلوبِ من الضَّلال، ورحمةٌ بالنَّاسِ في دعوتهِ وأحكامه، وبشارةٌ للمسلمين بالفوزِ والفلاحِ وقد آمنوا به.

وكان المسلمون يستبشرون به إذا نزل؛ لأنه يزيد من حسناتهم ودرجاتهم. قال الله تعالى: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [سورة التوبة: ١٢٤].

وما دام القرآن هكذا، فإنه باعث على الفرح به والسعادة والرضى، لا بعرَض من الدنيا يزول:

{قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [سورة يونس: ٥٨]

أي: لِيَفرحِ النَّاسُ بدينِ الله والقرآنِ الكريم، وبالإيمانِ واتّباعِ الحقّ، فإنَّه أفضلُ وأحسنُ من هذا الذي يحرِصونَ عليهِ ويجمعونه من حطامِ الدنيا وزخارفها وزهرتها الفانية.

٥- والرسول عليه الصلاة والسلام (بشير) كما أنه نذير. {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً} [سورة البقرة: ١١٩].

أي: تبشِّر الطائعين بالجنَّة، وتُنذِر العاصين بالنار يومَ القيامة.

وهو مبعوث بالرحمة، والعدل والأمان والاطمئنان يخرج من رحم الرحمة! {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [سورة الأنبياء: ١٠٧]، أي: ما أرسلناكَ إلاّ رحمةً للنَّاسِ كلِّهم، بما أُرسِلتَ به من

شريعةٍ عامَّة، فيها العقيدةُ الصَّحيحة، والأحكامُ العادلة، والدَّعوةُ إلى السُّلوكِ المستقيم، التي تؤدِّي إلى السَّعادةِ والأمانِ في الدَّارَين.
وهو رحيم بالمؤمنين، فيحبونه، ويجلونه، وتطمئنُّ إليه قلوبهم: {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [سورة التوبة: ١٢٨].
أي: شاقٌّ وصعبٌ عليه أن يرَى أذًى وضررًا يَلحَقُكم، أو عذابًا يصيبُكم، حريصٌ على هدايتِكم وصلاحِكم، وما ينفعُكم في دنياكم وآخرتكم، كثيرُ الرَّحمةِ بالمؤمنين، رحيمٌ بالمطيعين منكم والمذنبين.

٦- والأنبياء كلهم مبشِّرون رحماء بقومهم، عليهم الصلاة والسلام، يبشِّرون الناس بالجزاءِ الحسنِ إنْ هم أطاعوا وثَبتوا على الحقّ، ويخوِّفونهم من العقابِ الشَّديدِ إنْ هم خالَفوا وعصَوا: {فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ} [سورة البقرة: ٢١٣].

٧- ولا تتصور فرحًا مثل فرح شيخ عجوز **يبشَّر بمولود** وهو لم يرزق بأولاد في حياته، فكيف إذا قيل له إن هذا المولود يكون نبيًّا مثل أبيه؟ إنه زكريّا، الذي بُشِّر بيحيى، عليهما الصلاة والسلام: {فَنَادَتْهُ المَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} [سورة آل عمران: ٣٩].
وأعظم من هذا عندما **بشِّرت مريم بنبيِّ الله عيسى** عليه السلام، من أولي العزم من الرسل: {إِذْ قَالَتِ المَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآَخِرَةِ وَمِنَ المقَرَّبِينَ} [سورة آل عمران:٤٥].
وقبل هذا وذاك **بشرى الملائكة لأبي الأنبياء إبراهيم** عليهم السلام بإسحاق: {قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ} [سورة الحجر: ٥٣].

٨- واجتمعت قريش على محاربة المسلمين في أُحد انتقامًا لما أصابها في بدر، **وبشَّرهم الله تعالى بأن يمدَّهم بالملائكة** إذا صبروا واتقوا، حتى تطمئنَّ قلوبهم، ولا يجزعوا:

{وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ} [سورة آل عمران: ١٢٦].

أي: ما جعلَ اللهُ هذا الإمدادَ بالملائكةِ إلا بُشرَى لكم، لتَطمئنَّ قلوبُكم، وتَطيبَ نفوسُكم، ويَثبُتَ جأشُكم، أمّا النصرُ فهو من عند اللهِ وحده...

٩- والنصر على الأعداء من أكبر المبشرات، وقد بشَّر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالنصر على أعدائهم من المشركين: {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الصف: ١٣].

أي: نعمةٌ أخرى تحبُّونها، هي بُشرَى لكم: نصرٌ من اللهِ على المشركين، وفتحٌ من عنده، في القريبِ العاجل، وبشِّر المؤمنين أيُّها الرسولُ بالنَّصرِ في الدُّنيا، وبالمثوبةِ الحسنَى في الآخرة.

الجهاد:

والجهاد في سبيل الله والشهادةُ من بواعث الاطمئنان؛ لأن الله تعالى يبشِّر أصحابها بالجنة، وهي أعظم فوز للإنسان، وأكثر ما تقرُّ به عينه!

يقول ربنا سبحانه وتعالى {فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة التوبة: ١١١]

ويقول واصفًا حال الشهداء: {يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ المؤْمِنِينَ} [سورة آل عمران: ١٧١]

أي أنَّهم يَستبشِرون ويُسَرُّون بما رأوا ما وُعِدوا به من جزيلِ الثَّوابِ من فضلِ اللهِ ونعمته. وهذا شأنُ الله مع المؤمنين الصَّادقين، والمهاجرين في سبيله، فيُكرمُهم، ويُجزِلُ لهم الثَّواب. فاطمئنوا أيها المؤمنون المهاجرون المجاهدون... إنه وعدُ الله لكم: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ} [التوبة: ٢٠ - ٢١].

فلهؤلاءِ ميزةٌ كبرى، فإنَّ ربَّهم يبشِّرهم في يومِ الفزَعِ الأكبرِ بالرَّحمةِ والأمن، والرِّضَى والعافية، وجنَّاتٍ عاليةٍ فيها النَّعيمُ الدائم، من كلِّ ما تشتهيهِ الأنفسُ وتَلذُّ الأعين.

ولاية الله:

وولاية الله للمؤمنين يطمئن القلوب. فلا أعظمَ منه سبحانه ولا أجلَّ ولا أقوى. يقول سبحانه: {وَاللهُ وَلِيُّ المؤْمِنِينَ} [سورة آل عمران: ٦٨]، فينصرهم ويجازيهم الحسنى بإيمانهم (روح البيان)، وهو وعد منه سبحانه لهم بالنصر في الدنيا والنعيم في الآخرة (المحرر الوجيز).

{وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ} [سورة الجاثية: ١٩]، أي أن الله تعالى مُعين عبادِهِ المؤمنين الملتزمين طاعتَه.

وقال الله تعالى لعباده المؤمنين: {فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [سورة الحج: ٧٨].

أي أن اللهُ ناصركم ومتولِّي أمرِكم، ونعمَ الوليُّ الحافظُ هو، والنَّاصرُ لكم، ولن يَضِيعَ مَن كانَ اللهُ وليَّهُ ولن يُخذَل.

وأمر الله رسوله أن يقول: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} [سورة الأعراف: ١٩٦]

أي: إنَّ حافِظي وناصِري ومتولِّي أموري هو اللهُ ربُّ العالمين، الذي بيدهِ وحدَهُ تحصيلُ المنافعِ ودفعُ المضارّ، الذي أيَّدني بتنزيلِ كتابهِ العظيم، فهو الذي ينصرني ويدفعُ عني ضررَ أعدائي، ولا يخذلني، كما يتولَّى من صلحَ عملهُ بطاعتهِ مِن خلقه.

كما أمره أن يقول للمنافقين: {قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [سورة التوبة: ٥١]

أي: قل لهم أيُّها النبيُّ الكريم: لن يصيبَنا شيءٌ أبداً إلاّ ما قدَّرَهُ اللهُ علينا، فنحن تحت مشيئتهِ وإرادته، لا يتغيَّرُ أمرٌ بموافقتِكم ومخالفتِكم، وبمشاركتِكم وانسحابِكم، فهو ناصرُنا وحافظُنا، ومَلجَؤنا وسيِّدُ أمورِنا، وعلى اللهِ وحدَهُ فليعتمدِ المؤمنون، فهو حسبُهم ونعمَ الوكيل.

ودعاء جميل في حديث صحيح يدعو به المسلم في القنوت عندما يقول: "وتولَّنا فيمن تولَّيت". أما الكافرون فلا مولى لهم. وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يجيبوا المشركين في آخر معركة أحد بقوله: "الله مولانا ولا مولى لكم" (البخاري ٤٠٤٣).

وهو في قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ} [سورة محمد: ١١]، أي أنَّ الله ناصرُ المؤمنين على أعدائهم، والكافرون ليس لهم من يدفعُ عنهم العذابَ إذا حلَّ بهم.

الثبات:

وتثبيت الله أنبياءه وعباده المؤمنين والمتوكلين عليه تسكين لقلوبهم وطمأنة لنفوسهم. ويكون ذلك بأساليب وأسباب، حسب الظرف والمقام...

مثاله قوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وهو يدعو قومه المشركين ويلقى منهم شدَّة وصدًّا: {وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [هود: ١٢٠].

أي: نقصُّ عليكَ كلَّ ما تحتاجُ إليه من أخبارِ الرسلِ والأُممِ المتقدِّمين، وما جرى لهم من تصديقٍ وتكذيب، ونصرٍ للرسلِ والمؤمنين، وهلاكٍ للكافرين المكذِّبين، لنثبِّتَ به قلبك، فتزدادَ يقينًا وطمأنينة، وثباتًا على أداءِ الرسالة، وتحمُّلاً لأذى الكافرين، أُسوةً بمن سبقكَ من إخوانك المرسَلين. وجاءكَ في هذه السُّورةِ الحقُّ من عند الله، من النبأِ الصَّادقِ والقَصصِ الحقّ، ليتَّعظَ به المؤمنون، ويرتدعَ به الكافرون، ويكونَ لهم جميعًا عبرةً بما سبق.

رحمة الله:

ورحمة الله تعالى كذلك، قال جلَّ شأنه: {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ} [سورة آل عمران: ٧٤].

فهو سبحانه يخصُّ مَن يشاءُ من عبادهِ برحمته، وقد خصَّ المؤمنين بفضلٍ كبيرٍ عندما جعلهم على ملَّةِ خليلهِ إبراهيمَ عليه السَّلام، وعلى دينِ أحبِّ خلقهِ إليه محمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم. وهو ذو إحسانٍ كبيرٍ وفضلٍ عميم، وسعَتْ رحمتهُ كلَّ شيء!

وقال الله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [سورة النساء: ١٧٥].

أي أن الذين آمنوا بربِّهم وأطاعوهُ وتوكَّلوا عليه حقَّ التوكُّل في جميعِ أمورهم، فسيرحمهم، ويدخلهم الجنَّة، ويزيدُهم من فضلهِ وإحسانه، فيضاعفُ لهم أجورَهم، ويزيدهم نوراً وهِدايةً وتثبيتاً على دينه، ودرجاتٍ عاليةً في الجنَّة.

والله سبحانه برحمته يغفر الذنوب، وبها يدخل الناس الجنة، فالرحمة هي الأصل، التي تبعث على الطمأنينة، لتعلمَ النفوسُ أن الربَّ يعدل ويرحم ولا يظلم.

قال ربنا سبحانه وتعالى: {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [سورة الأنعام: ١٢]. أي: قضَى اللهُ سبحانَهُ على نفسهِ المقدَّسةِ بأنْ يرحمَ العباد، ولا يعجِّلَ عقوبتَهم، وأن يقبلَ توبتَهم، إحساناً وتفضُّلاً منه...

ويبشر الله عباده الصالحين برحمته الواسعة ويقول: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} [سورة الأعراف: ١٥٦].

قالَ اللهُ ما معناه: ورحمتي عظيمةٌ شاملةٌ عامَّة، فسأثبتُها لعباديَ المؤمنين، وأخصُّ بها الذين يبتعدون عن الشِّركِ والمعاصي، ويخافون يومَ الحساب، ويخشَون عقوبةَ الله، ويدفعون زكاةَ أموالهم للفقراءِ والمساكين، ويؤمنون بآياتنا كلِّها.

صلاة الله وملائكته:

ومن فضل الله العظيم على عباده المؤمنين أن يصلي هو وملائكته عليهم: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} [سورة الأحزاب: ٤٣].

أي أن الله يَذكرُكم ما ذكرتُموه، ويرحمُكم بذلك، ويُثني عليكم عند ملائكتِه، وهم يدعون ويستغفرون لكم كذلك، ليخرجَكم الله من ظُلماتِ الجهلِ والمعاصي إلى نورِ العلمِ والإيمانِ والطَّاعة، وكان رحيمًا بالمؤمنين إذ هداهُم للحقِّ في الحياةِ الدُّنيا، وأعدَّ لهم ما يَسرُّهم في الآخرة.

وأدعيتهم كثيرة لنا، ومتنوعة وجليلة، كما في الآيات (٧ – ٩) من سورة غافر، وإنها لتُفرح المؤمن: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ

آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}.

أي أن الملائكة يطلبون من الله العفوَ والمغفرةَ لعبادهِ المؤمنين، قائلين: اللهمَّ إنَّ رحمتكَ وسعت كلَّ شيء، وعلمَكَ أحاطَ بما قالهُ عبادك المؤمنون وما عملوه، من خيرٍ وشرّ، فاغفر ذنوبَ التَّائبين الذين أنابوا إليك، والتزموا صراطكَ المستقيم، واحفظهم من عذابِ النَّار.

{رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}:

اللهمَّ وأدخلهم جنَّاتِ الإقامةِ الدَّائمةِ التي وعدتَّهم بها، واجمعْ بينهم وبين من آمنَ وعملَ صالحًا من أزواجِهم، وذرِّياتهم، لتبتهجَ قلوبُهم، ويكتملَ سرورُهم، فأنت الغالبُ الذي لا يَمتنعُ عليه شيء، الحكيمُ فيما تفعلُ وتقول.

{وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}:

وقِهم وبالَ السيِّئاتِ وسوءَ عاقبتها، فإنَّ من حفظتَهُ منها يومَ المؤاخذةِ والحساب، فقد رحمتَهُ وأنقذتَهُ من العذاب، وذلكَ هو الفلاحُ والسَّعادةُ العُظمى.

عدالة الله:

والله سبحانه عادل، لا يظلم أحدًا من عباده، ولو كان كافرًا، بل يجازيهم بما يستحقون، بميزان عدل يوم القيامة، فتطمئنُّ قلوب المؤمنين إلى عدل الله ورحمته، وأن أعمالهم لن تذهب هباء، وما اقترفوه من آثام فإنها تقدَّر بقدرها، وقد تمحى بالحسنات، أو يعفو الله عنها:

{الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [سورة غافر: ١٧].

أي: في يومِ القيامةِ تُحاسَبُ كلُّ نفسٍ على ما عملت من خيرٍ وشرّ، وتُجزَى على ذلك إثابةً أو عقوبة، ولا ظلمَ في هذا اليوم، فالحاكمُ فيه هو اللهُ الحكَمُ العدل، لا يَنقُصُ من ثوابِ أحد، ولا يزيدُ في عقوبةِ أحد. وهو سريعُ الحساب، على كثرة الخَلق، وكثرةِ ما عملوا.

{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} [سورة فصلت: ٤٦].

أي: من عملَ عملاً صالحًا فإنَّ نفعه يعودُ على نفسه، ومن أساءَ العملَ فإنَّ سوءَ عاقبتهِ يعودُ على نفسهِ كذلك، واللهُ لا يظلمُ أحدًا من عباده، فلا يَنقُصُ من ثوابهم، ولا يَزيدُ في عقابِهم.

رضى الله:

ثم إن رضَى الله تعالى هو قمَّة السعادة عند المؤمن، لأن غايته من عباداته كلها هي رضاه سبحانه، ويطمئن قلبه إلى آخر درجات الاطمئنان إذا علم يقينًا أن الله تعالى قد رضي عنه!

يقول جلَّ شأنه: {وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة التوبة: ٧٢].

أي أن رضاءَ اللهِ عنهم أكبرُ وأجلُّ من ذلك النَّعيمِ كلِّه، وهو الفلاحُ والنَّجاح، والسَّعادةُ والهناء، والفوزُ الذي ليسَ بعده فوز، لأنَّه يعني أنْ لا يسخطَ اللهُ عليهم بعد ذلك، فيطمئنُّون ويَهنؤون إلى الأبد.

ومن قبل قد رضي الله عن المهاجرين الأولين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن آواهم من الأنصار.. ومن تبعهم بإحسان في جميع العصور!

{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة التوبة: ١٠٠].

أي: السابقون الأوَّلون ممَّن اعتنقوا الإسلامَ وناصروا رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم من المهاجرين الذين هاجروا إلى المدينةِ دارِ الإسلام، ومن الأنصارِ أهلِ المدينةِ الذين آوَوا إخوانَهم المهاجرين وآزروهم، والذين لَحقوا بهم من بعدِهم بالإيمانِ والطَّاعةِ إلى يومِ القيامة، فاقتَدَوا بهم واتَّبعوهم بإحسان، ولم يقولوا فيهم سوءًا، فأولئك رضيَ اللهُ عنهم بقبولِ طاعتِهم وارتضاءِ أعمالهم، ورضُوا هم عنه بما نالُوهُ من النَّعيمِ والرَّحمةِ الواسعة، وقد هيَّأ لهم في الآخرةِ جنّاتٍ عاليات، تجري من تحتها الأنهار، مستقرّين فيها أبداً، وذلك هو الفلاحُ والنَّجاح، والسَّعادةُ والهناء.

الحق:

والحقُّ وحده تسكن إليه نفوس المؤمنين، وتخشع له وتذل، أما الباطل فهم حرب عليه. قال الله تعالى: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [سورة الحج: ٥٤].

أي: ليَعلمَ العلماءُ المخلَصون الثابتون على الحقّ، أنَّ ما أوحينا إلى رسولنا وأثبتناهُ في القرآن، هو الحقُّ المنزَلُ من ربِّهم، فيؤمنوا به ويصدِّقوه، فتَسكُنَ له قلوبُهم وتخشعَ له، وإنَّ الله يُرشِدُ عبادهُ المؤمنين إلى نورِ الحقِّ ويرزقُهم اتِّباعَه، ويبصِّرُهم بالباطلِ ويرزقُهم اجتنابَه.

والحقُّ في الإسلام وحده: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [سورة الأنعام: ١٦١].

أي أن اللهَ هداني ووفَّقني إلى طريقٍ واضحٍ مستقيمٍ لا اعوجاجَ فيه، هو دينُ الله القائمُ الثابت، ملَّةُ نبيِّ الله إبراهيم، المائلِ عن جميعِ الأديانِ الباطلةِ إلى الحقّ، وما كان من المشركين، كما ادَّعتِ اليهودُ والنصارَى أنَّهُ منهم!

غفران الذنوب:

ومن بواعث الاطمئنان مغفرة الذنوب، مهما بلغت، إذا تاب العبد منها. قال الله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [سورة الزمر: ٥٣].

أي: قل أيُّها الرَّسول من معنى كلامِ الله: يا عباديَ الذين أفرطوا في المعاصي وأكثروا من الذُّنوبِ والفواحش، لا تيأسوا من رحمةِ اللهِ ومغفرته، فاللهُ يَغفرُ الذُّنوبَ جميعَها، مهما كانت، صغيرَها وكبيرَها، سرَّها وعلانيَّتَها، فاللهُ كثيرُ المغفرةِ لذنوبِ التَّائبين، عظيمُ الرَّحمةِ بعبادهِ المؤمنين.

وذكر أنه يقبل التوبة من عباده: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [سورة الشورى: ٢٥].

أي: هو التوَّابُ الذي يقبلُ التَّوبةَ عن عبادهِ إذا تابوا وأنابوا، ويعفو عنهم ويغفرُ لهم سيِّئاتِهم، صغيرَها وكبيرَها، واللهُ يعلمُ ما تفعلون من خيرٍ وشرّ.

العبودية:

وعبادة الله تعالى تبعث على الاطمئنان، هذا لمن كان قلبه ممتلئًا بالإيمان، فإنه يشعر براحة إذا صلى لله تعالى، ولا يطمئن إلا إذا أدَّى فرض الله عليه، ويزيد على ذلك فيتهجد، ليتلذذ بالعبادة لله ومناجاته.

وكان صلى الله عليه وسلم يصرّح بهذا، يقول كما صحَّ في الحديث: "يا بلال، أقمِ الصلاة، أرِحنا بها".

ويقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٣]

فالصلاةُ تشدُّ العزيمة، وتجدّدُ الطاقة، وتملأ القلبَ نُوراً، ولذلكَ كانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا حزَبَهُ أمرٌ – أي هجمَ عليه أو غلبَهُ – صلَّى، كما في حديثٍ حسنٍ رواه أحمد وأبو داود.

وتختلف درجات العبّاد في أداء العبادات وصور أدائها، وكان من السلف من يتعمد صيام أيام القيظ الطويلة في الصيف ويتلذذ بذلك، طلبًا للأجر، ومبتغيًا رضى الله.

وليعلمْ كلٌّ أنه مأمور بعبادةِ الله، وأنها وظيفته الأولى في الحياة، فلتطب نفسه بها، وليؤدها بإحكام وإخلاص واطمئنان. {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [سورة غافر: ٦٥].

الثواب الجزيل:

ومن بواعث الاطمئنان أيضًا: كل ثواب من عند الله أعدَّه للمؤمنين:

١– وأوله الأمن والسلام يوم الحشر والحساب، يوم الفزع الأكبر: {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} [سورة الأنبياء: ١٠٣].

أي: لا يهمُّهم ولا يغمُّهم يومُ الهولِ الأكبر، لأنَّهم يُعطَون الأمانَ بأنَّهم من أهلِ الجنَّة، وتستقبلهم ملائكةُ الرَّحمةِ وتبشِّرهم بذلك، وتقولُ لهم: هذا يومُ الثَّوابِ الذي تُجزَون به، وهذا يومُ سروركم الذي وُعِدتُم به.

{مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ} [سورة النمل: ٨٩].

أي: من أطاعَ اللهَ وعملَ صالحًا فيُجازَى خيرًا يومَ القيامة، ويُعطَى أفضلَ من حسنتهِ تلك، وهم آمِنون سالمون من خوفِ ذلك اليومِ العصيب.

٢- وأعظم الثواب الجنة، فإن المؤمن يطمئن بذلك إلى ما يقوم به من عمل صالح، وأنه لا يذهب هباء، كقوله تعالى:

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ . لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} [سورة الغاشية: ٨ – ١٠].

أي: وجوهٌ يومَ القيامةِ تكونُ مبتهجةً بهيَّة، مشرقةً ناضرة، لعملِها الذي عملتهُ في الدُّنيا راضيةٌ مطمئنَّة، في جنَّةٍ رفيعةٍ عاليةِ الدَّرجات.

وقال الله تعالى في ثواب إيمانهم وأعمالهم الصالحة:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ} [سورة البروج: ١١].

أي: إنَّ الذين آمنوا وأخلَصوا في إيمانِهم، وعملوا الأعمالَ الصَّالحةَ الموافقةَ للإسلام، لهم جنَّاتٌ واسعاتٌ يومَ القيامة، تجري الأنهارُ من خلالِ مساكنِها وأشجارِها، وذلك هو الفوزُ والنَّجاة، والسَّعادةُ العظمى.

وقال سبحانه: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} [سورة النساء: ٥٧].

وقال: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة النحل: ٩٧].

أي أنه يُجزى حياةً طيِّبةً في الحياةِ الدُّنيا، ولا يُشتَرَطُ فيها المالُ الوفير، فليس هو مقياسًا للسَّعادة، لكنَّ المهمَّ هو الهناءةُ والقناعةُ والعافية، والتَّوفيقُ للطَّاعة، وفي الآخرةِ يُجزى ثوابًا هو أفضلُ ما يُجازَى به على أعمالٍ حسنةٍ عَمِلَها.

وأهل الجنان يحمدون ربهم على أن تخلصوا من متاعب الدنيا وأعبائها وصروفها، وانتهت همومهم وأحزانهم إلى غير رجعة:

{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ} [سورة فاطر: ٣٤]:

فيقولون إذا دخلوا الجنَّة: الحمدُ للهِ الذي أذهبَ عنَّا الأحزانَ والهموم، فقد كنَّا نخافُ من عاقبةِ أمرِنا، واللهُ يغفرُ ذنوبَ عبادهِ المؤمنين التَّائبين، ويشكرُ لهم طاعتَهم، ويجازيهم عليها خيرَ الجزاء.
{الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} [سورة فاطر: ٣٥]:

الحمدُ للهِ الذي أنزلَنا دارَ الإقامة، التي لا موتَ فيها ولا انتقالَ عنها، من فضلهِ ونعمته، ولم تكنْ أعمالُنا تساوي ذلك، لا يصيبُنا فيها تعبٌ ومشقَّةٌ، ولا إعياءٌ وفتور.

فالمؤمن بيوم الحساب يعلم أن ثوابه مضمون، وأجره لا يضيع، فإذا فاز تذكر إيمانه به ووعدَ ربِّهِ له:

{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ . إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} [سورة الحاقة: ١٩ – ٢٢]

يقول: لقد كنتُ موقِنًا بالبعثِ والحساب، وبالثَّوابِ والعقاب. فهو في عِيشةٍ مَرضيَّة، وسعادةٍ غامرة، في جنَّةٍ واسعةٍ مرتفعة.

أما فروع السعادة وهناءة العيش والمنصب في الدنيا، التي كانت تبعث على راحة النفس والشعور بالنشوة، فلم تنفع أصحابها، ممن لم يكن مؤمنًا بيوم الحساب، وبالثواب والعقاب. لقد تغيَّرت الموازين:

{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ . خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ} [الحاقة: ٢٥ – ٣١].

الهدية والخبر السارّ:

وحامل الهدايا والأخبار السارّة يبعث على البهجة والمسرَّة وراحة البال، كما جاء البشير وألقَى قَميصَ يوسُفَ على وجهِ أبيه يعقوب، وعادَ بصيرًا: {فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً} [سورة يوسف: ٩٦].

المطر:

والناسُ يستبشرون بالمطر لأنه رحمة سقيا للزرع والحيوان والبشر، بل يستبشرون بما يمهد له من الرياح التي تحمل الغيم المثقل ببخار الماء: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ} [سورة الأعراف: ٥٧]

{وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} [سورة الشورى: ٢٨]

أي: هو الرَّحيمُ بعباده، الذي ينزِّلُ المطرَ ليغيثَهم من الجدبِ والقحط، بعدما يئسوا من نزوله، ويبسطُ رحمتَهُ بهذا المطر كذلكَ على السَّهلِ والجبل، والنَّباتِ والحيوان، وهو الذي يتولَّى عباده بالإحسانِ إليهم والتفضُّلِ عليهم، وهو وحده المستحقُّ للحمدِ بذلك.

الفصل الرابع

العون على الاطمئنان

ذكر الله:

الذي يعين على اطمئنان القلب وراحة النفس عند المؤمن هو ذكر الله تعالى، من تسبيح وتكبير وتحميد وتهليل ودعاء ونجوى وتبتل... وأولها قراءة القرآن الكريم وتدبره والاستماع إليه.

يقول ربنا سبحانه وتعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [سورة الرعد: ٢٨].

أي أن التائبين المهتدين هم الذين ثبتَ الإيمانُ في قلوبِهم، وهم الذين تطيبُ وتَسكنُ قلوبهم بذكرِ اللهِ وكلامهِ المعجِز، وتَرضَى به إلهاً رحيمًا ومولًى كريمًا، ألا بذكرِ اللهِ وحدَهُ تطمئنُّ القلوب، وترتاحُ النُّفوسُ المؤمنة، دون غيرِهِ من الأمورِ الدُّنيويَّة.

وقائمة (الذكر) عند العلماء طويلة، بل يذهبون فيه مذاهب شتى، ولا مانع من التأليف بينها.

وقد ذكر الشوكاني في تفسيره – عند تفسير الآية – أنه: كتلاوة القرآن، والتسبيح، والتحميد، والتكبير، والتوحيد، أو بسماع ذلك من غيرهم، وقد سمَّى سبحانه القرآن ذكراً... ثم قال: قيل: تطمئن قلوبهم بتوحيد الله، وقيل: المراد بالذكر هنا الطاعة، وقيل: بوعد الله، وقيل: بالحلف بالله، فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه، وقيل: بذكر رحمته، وقيل: بذكر دلائله الدالة على توحيده، {أَلاَ بِذِكْرِ ٱللَّهِ} وحده، دون غيره {تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ}. والنظر في مخلوقات الله سبحانه وبدائع صنعه وإن كان يفيد طمأنينة في الجملة، لكن ليست كهذه الطمأنينة، وكذلك النظر في المعجزات من الأمور التي لا يطيقها البشر، فليس إفادتها للطمأنينة كإفادة ذكر الله، فهذا وجه ما يفيده هذا التركيب من القصر.

ويرى الشيخ الشعراوي في خواطره التفسيرية أن المقصود بالذكر هنا القرآن، وأن الحديث هو في معرض تصديق النبي محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله، وأن قلوب المسلمين تطمئن بالتصديق به دون الكفار، قال: يعني أن القلوب تطمئن بالقرآن وما فيه من أخبار

صادقة تمام الصدق، لتؤكد أن محمداً صلى الله عليه وسلم مبلِّغ عن ربِّه، وأن القرآن ليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم، بل هو من عند الله.

قال: ولذلك فحين يُثير الكفار خزعبلاتهم للتشكيك في محمد صلى الله عليه وسلم يأتي القرآن مُطَمئِناً للمؤمنين، فلا تؤثر فيهم خزعبلات الكفار.

ثم قال: يعني أن الاطمئنان مستوعِب لكل القلوب، فكل إنسان له زاوية يضطرب فيها قلبه، وما أنْ يذكر اللهَ حتى يجدَ الاطمئنان ويتثبتَ قلبه.

وقال العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير) مختصرًا: الاطمئنان السكون، واستعير هنا لليقين وعدم الشك، لأن الشك يستعار له الاضطراب. وذكر الله يجوز أن يراد به خشية الله ومراقبته بالوقوف عند أمره ونهيه. ويجوز أن يراد به القرآن. ويجوز أن يراد ذكرُ الله باللسان، فإن إجراءه على اللسان ينبه القلوب إلى مراقبته. وهذا وصف لحسنِ حال المؤمنين ومقايستهِ بسوء حالة الكافرين الذين غمر الشك قلوبهم.

وقال رحمه الله في لفتة بلاغية: اختير المضارع في {تَطْمَئِنُّ} مرتين لدلالته على تجدد الاطمئنان واستمراره، وأنه لا يتخلله شك ولا تردد. وافتتحت جملة {أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ} بحرف التنبيه اهتماماً بمضمونها وإغراء بوعيه، وهي بمنزلة التذييل لما في تعريف {الْقُلُوبُ} من التعميم. وفيه إثارة الباقين على الكفر على أن يتسموا بسمة المؤمنين من التدبير في القرآن لتطمئن قلوبهم، كأنه يقول: إذا علمتم راحة بال المؤمنين فماذا يمنعكم بأن تكونوا مثلهم؟

وقال الآلوسي في (روح المعاني): فيه إشعار بأن الكفرة لا قلوب لهم، وأفئدتهم هواء، حيث لم يطمئنوا به (بالقرآن)، ولم يعدُّوه آية، وهو أظهر الآيات وأبهرها.

وفي رائعة له يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تفسير الآية الكريمة: تطمئنُّ بإحساسها بالصلة بالله، والأنس بجواره، والأمن في جانبه وفي حماه؛ تطمئن من قلق الوحدة، وحيرة الطريق، بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير، وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء، ومن كل ضرّ، ومن كل شرّ، إلا بما يشاء، مع الرضا بالابتلاء، والصبر على البلاء. وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة:

{أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}

ذلك الاطمئنان بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة، يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، فاتصلت بالله، يعرفونها ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين الذين لم يعرفوها، لأنها لا تنقل بالكلمات، إنما تسري في القلب فيستروحها، ويهشُّ لها، ويندى بها، ويستريح إليها، ويستشعر الطمأنينة والسلام، ويحسُّ أنه في هذا الوجود ليس مفردًا بلا أنيس، فكل ما حوله صديق، إذ كل ما حوله من صنع الله الذي هو في حماه.

وليس أشقى على وجه هذه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس إلى الله.

ليس أشقى ممن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون، لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه بما حوله في الله خالق الكون.

ليس أشقى ممن يعيش لا يدري لمَ جاء؟ ولمَ يذهب؟ ولمَ يعاني ما يعاني في الحياة؟

ليس أشقى ممن يسير في الأرض يوجس من كل شيء خيفة لأنه لا يستشعر الصلة الخفية بينه وبين كل شيء في هذا الوجود.

ليس أشقى في الحياة ممن يشقُّ طريقه فريدًا وحيدًا شاردًا في فلاة، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين.

وإن هناك للحظات في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكنًا إلى الله، مطمئنًّا إلى حماه، مهما أوتي من القوة والثبات والصلابة والاعتداد.. ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله، فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله: {أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}. ا. هـ.

وذكرُ الله تعالى فضائلهُ كثيرة، وفوائدهُ عميمة، والمؤمنُ يستجيبُ لنداءِ ربِّهِ في ذلك قبل كلِّ شيء: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} [الأحزاب: ٤١ – ٤٢]، أي: ذكرًا كثيرًا يَعُمُّ أغلبَ الأوقاتِ والأحوال، على ما هداكم إلى الإيمان، وأنعمَ عليكم بأنواعِ النِّعم.

وذكر الإمام النووي في أول كتابه (الأذكار)، أن من أفضل حال العبد حالَ ذكرِهِ ربَّ العالمين، واشتغاله بالأذكار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما أفضل الأذكار، ففي قوله عليه الصلاة والسلام: "أحبُّ الكلامِ إلى اللهِ أربعٌ: سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ. لا يَضرُّك بأيِّهنَّ بدأتَ". (صحيح مسلم ٢١٣٧).
كما سُئل رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: أيُّ الكلامِ أفضل؟ فقال: "ما اصطفَى الله لملائكتهِ أو لعباده: سبحانَ اللهِ وبحمده". (صحيح مسلم ٢٧٣١).
وقال عليه الصلاة والسلام: "مثَلُ الذي يذكرُ ربَّهُ والذي لا يذكرُ ربَّه، مثَلُ الحيِّ والميِّت". (رواه الشيخان: البخاري ٦٤٠٧، مسلم ٧٧٩).

وقوله تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [سورة طه: ١٢٤].
أي: من خالفَ هُداي، وكذَّبَ رسُلي، فإنَّهُ يعيشُ في الدُّنيا حياةَ قلقٍ وحيرة، وشكٍّ وحرج، وضيقٍ وشقاء، وإنْ بدا متنعِّمًا. ويضيَّقُ عليه في قبره، ويُحشَرُ يومَ القيامةِ أعمَى البصر.
وقد قارن الله تعالى بين قلبين في كتابه: قلب قاس لا يلين لذكر الله، وآخر يخشع ويطمئن لذكره:
{أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [سورة الزمر: ٢٢]
أي: الويلُ والهلاكُ لمن كانَ قاسيَ القلب، لا يخشعُ عند ذكرِ اللهِ ولا يَلين، أولئكَ في ضلالٍ ظاهرٍ عن الحقّ.
{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [سورة الزمر: ٢٣]
أي أن قلوبَ المؤمنين تضطرب، وترتعشُ جلودهم عند تلاوة القرآن العظيم، أو عند سماعِ آياتِ وعدهِ ووعيده، خوفًا وخشيةً من ربِّهم، ثمَّ تلِينُ وتسكُن، وتطمئنُّ قلوبُهم إلى ذكرِ اللهِ وتأنسُ به، لِما يأمُلون من رحمتهِ ولطفه..

التزكية:

والتزكية تطهير للنفس من أوضارها، فإذا طهرت ارتاحت، واطمأن بها القلب.

ففيها صفاء للنفس، وعون على الراحة والسكون. وكثيرًا ما يكون هذا بذكر الله تعالى، وبالمجاهدة في الطاعة والعبادة والتبتل، والتربية والمراقبة، والصبر والثبات.

والله تعالى هو الذي يزكي عباده، بتوفيقهم لذكره وشكره وحسن عبادته، وبهدايتهم إلى الأعمال الصالحة، وإلهامهم التوبة والاستغفار، فيزكيهم ربهم بقبول توبتهم، وغفران ذنوبهم، وتهيئة نفوسهم لأعمال جليلة، وتوفيقهم لأفضل الأعمال وأحسن الأقوال.

يقول الله تعالى في جزء من آية: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [سورة النور: ٢١]، أي أن اللهَ يطهِّرُ من شاءَ من خَلقه، بتسديدِهم وهدايتهم للتَّوبة، ثمَّ قبولها منهم.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يزكي بتوجيه وتأييد من ربه، من ذلك تزكيته لأصحابه، قال الله تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [سورة البقرة: ١٥١]، أي: يقرأ عليكم كلامَ اللهِ العظيم، ويطهِّركم من رذائلِ الأخلاق، وأفعالِ الجاهليَّة، ودنَسِ النفوس، ويُخرجُكم من الظُّلماتِ إلى النور، بإذنِ ربِّه، ويعلِّمُكم القرآنَ والسنَّة...

وقال أيضًا: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [سورة آل عمران: ١٦٤]

أي: يربّيهم تربيةً إسلاميَّة، فيطهِّرهم من أوضارِ الجاهلية، ودنَسِ الطبائع، وسوءِ العقائدِ التي كانوا عليها، ويأمرُهم بالخيرِ وينهاهُم عن الشرِّ والفحشاء...

والعبد قد يزكي نفسه بتوفيق من الله وهداية له: {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا} [سورة الشمس: ٩]، أي: قد فازَ وسَعِدَ مَن أصلحَ نفسَهُ وطهَّرها من الشِّركِ والمعاصي ومساوىءِ الأخلاق.

الصبر على الطاعة:

ومما يعين على الاطمئنان: الصبر على طاعة الله، والصلاة له. وهذا عام، ينفع للاطمئنان وغيره.

قال سبحانه وتعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ} [سورة البقرة: ٤٥].

أي: استعينوا أيُّها المؤمنون على طلبِ الخيرِ في الآخرة والدنيا، بالصبر على طاعةِ الله، والصَّلاة. فإنَّ الصبرَ لابدَّ منه في كلِّ أمرٍ شاقّ، والصلاةُ تُعِينُ على الثباتِ على الأمر، وهي شاقَّةٌ وثقيلةٌ إلاّ على المتواضعين المطيعين لله.

ولكن من هم الخاشعون، المرشحون لهذه المهمة الدينية الجليلة؟

يقول سبحانه: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيهِ رَاجِعُونَ} [سورة البقرة: ٤٦].

أي: الذين يؤمنون بوعدِ اللهِ ووعيده، وبأنَّهم محشورون إليه يومَ القيامة، وأنَّ أعمالَهم معروضةٌ عليه. وهذا الإيمانُ هو الذي يدفعُهم إلى طاعتِه، وتجنُّبِ معاصيه.

وقد أمر الله رسوله أن يقول للناس: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} [سورة هود: ٣].

أي: اطلبوا المغفرةَ من اللهِ لذنوبِكم، وتوبوا إليه منها، ولا تعودوا إليها، ليَمنحَكم حياةً طيّبة، فيها أمنٌ وعافية، وسكَنٌ وراحة، حتَّى يأتيَ أجلُكم المقدَّرُ لكم، وليُعطيَ كلَّ ذي فضلٍ وحسنةٍ في الدُّنيا جزاءَ فضلهِ وإحسانه في الآخرة.

وطاعةُ الله تعالى تكون في جوانب مختلفة، فإذا اتصف بها في الحياة الدنيا وصبر عليها فإنه يبشَّر بالجنة:

{التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة التوبة: ١١٢].

فمن صفاتِ المؤمنين الطائعين لربهم أنَّهم تائبون من الذُّنوب، صغيرِها وكبيرِها، حامدون لربِّهم على كلِّ حال، صائمون لله، والصَّومُ من أفضَلِ الطاعات، فهو يقلِّصُ من شهواتِ الإنسانِ ويقرِّبهُ إلى الله، راكعون لربِّهم ساجدون، في الصَّلواتِ المفروضات، والركوعُ والسجودُ من أعظمِ

أركانِ الصَّلاة، وفيهما أظهَرُ صورِ العبوديَّةِ لله، و "أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّهِ وهو ساجد"، كما في صحيح مسلم.
وهم ينفعون الناسَ ويرشدونهم إلى الإيمانِ والطَّاعة، ويحذِّرونهم من الشِّركِ والمعصية، ويأتمرون بأوامرِ الله، فيُحِلُّون ما أحلَّ، ويحرِّمون ما حرَّم. وبشِّرِ المؤمنين المتَّصفين بهذه الصِّفاتِ الجليلةِ بكلِّ خيرٍ وفلاح.

ولا يستوي من أطاع وأخبت ومن أشرك: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ...} [سورة الزمر: ٩]، أي: أأنت أفضلُ أيُّها المشركُ أم من هو قائمٌ بواجبِ الطَّاعةِ والشُّكرِ في ساعاتِ اللَّيل، ساجدًا للهِ وقائمًا له في الصَّلاة، يخشَى عذابَ الآخرة، ويطمعُ في رحمةِ ربِّهِ وعفوه؟

التوكل:
والتوكل عليه سبحانه يعين على الاطمئنان، فيشعر المؤمن وهو يفوِّض أمره إلى ربه أنه في أمان، وأنه سيقدِّر له الخير، فمهما يأتي له من أمر يحمد الله عليه.
قال ربنا في كتابه العزيز: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة الأنفال: ٤٩].
أي: ومن يفوِّضْ أمرَهُ إلى اللهِ ويعتمدْ عليه، فإنَّه يلتجئُ إلى قويٍّ لا يُغالَب، وعزيزٍ لا يُقهَر، وحكيمٍ يَنصرُ مَن يستحقُّ النَّصر.
وقال في آية أخرى: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [سورة الطلاق: ٣].
أي: ومَن يَعتمدْ على اللهِ ويفوِّضْ إليه أمرَه، فهوَ كافيهِ في جميعِ أموره.
والتوكل لا ينفكُّ عن الإيمان، فهو للمؤمنين وحدهم: {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ} [سورة يونس: ٨٤].
فقد قالَ موسى لمؤمني قومهِ عندما رأى تخوُّفَهم: يا قوم، إذا كنتم صادقين في إيمانِكم، متمسِّكين بعقيدتِكم حقّاً، ففوِّضوا أمرَكم إلى اللهِ واعتَمدوا عليه، فإنَّهُ كافيكُم كلَّ شرٍّ وضُرّ، هذا إذا كنتم مستسلمين لقضاءِ الله، مخلصين له.

ويقول رسل الله عليهم الصلاة والسلام: {وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا} [سورة إبراهيم: ١٢]:

فقالت الرسل لأقوامهم: وكيف لا نتوكَّلُ على اللهِ ربّنا وقد هدانا لدينه، وبيَّنه لنا بالحجَّةِ والدَّليل، ويسَّرَ لنا الطَّريقَ إليه، فنحن على هُدًى ونورٍ منه؟

الشكر:

والشكر له سبحانه من صفات المؤمنين العابدين القانتين، وهم يعرفون فضله وثوابه، وتطمئن قلوبهم إلى ما أعدَّ الله للشاكرين من ثواب، وأنه يزيدهم بذلك من فضله ونعمته: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [سورة إبراهيم: ٧].

أي: إذا شكرتم نعمهُ التي أسبغها عليكم، وقابلتموها بالإيمانِ والطَّاعة، أثبتها لكم، وزادكم منها.

وفائدةُ الشكر تعود على الشاكر: {وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} [سورة النمل: ٤٠]:

أي: من شكرَ اللهَ على نِعَمهِ فإنَّما يَنفَعُ نفسَهُ بذلك، لأنَّهُ يعَرِّفُها الحقّ، ويستجلِبُ لها المزيدَ من الخيرِ والنَّفع، ومن لم يشكرْ فإنَّ اللهَ غنيٌّ عن شكره، وعن عبادةِ النَّاسِ وشكرهم أجمعين. وهو سبحانهُ كريم، فيُنعِمُ على من لم يشكرهُ أيضًا، ولا يعجِّلُ في عقوبتهم.

الدعاء:

ودعاءُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأمتهم أو أفراد منها طمأنة وسكن وبشرى لهم، فإن دعاءهم مستجاب.

قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ} [سورة التوبة: ١٠٣].

أي: ادعُ لهم واستغفر، إنَّ دعاءكَ يبعثُ في نفوسِهم الأمنَ والرحمةَ والطمأنينة.

التحري والاطلاع:

ومما يعين على الاطمئنان: البحث والتحري، والاطلاع والمعاينة، ومعرفة الكيفية والأسرار، حتى يطمئن القلب.

١- وهذا أبو الأنبياء، خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام، كان مؤمنًا عميق الإيمان، ومع ذلك أراد أن يطمئن إلى كيفية الخلق، والإحياء من جديد، فطلب من الله تعالى أن يريه ذلك عيانًا، فاستجاب لطلبه سبحانه:

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة البقرة:٢٦٠].

أي: قالَ له ربُّه: أوَلم تؤمنْ بأنِّي قادرٌ على الإحياءِ يا إبراهيم؟

وهو يعلمُ سبحانهُ أنَّه أثبتُ الناسِ إيماناً وأقواهُم يقيناً.

فقالَ عبدهُ ونبيُّهُ إبراهيمُ عليه السلام: بلَى يا ربّ، قد علمتُ وقد آمنت، ولكنِّي أريدُ أن أرى ذلك عِياناً، ليَنضمَّ ما أراهُ إلى ما أعتقدهُ يقيناً، فأزدادُ بالمشاهدةِ بصيرة، ويطمئنُّ بذلك قلبي، فإنَّه يَسكنُ إذا عاينَ شيئاً وشاهدَه، وليسَ الخبرُ كالمعاينة.

قال صاحبُ "روح المعاني": ولا أرى رؤيةَ الكيفيَّةِ زادت من إيمانهِ المطلوبِ منه عليه السلام، وإنَّما أفادت أمراً لا يجبُ الإيمانُ به".

فاستجابَ اللهُ دعاءه، وأراهُ كيفيَّةَ الإحياءِ عِياناً، وقال له: خُذ أربعةَ طيور، فاذبحها وقطِّعها ومزِّقها، وفرِّقْ أجزاءها على جبال، ثمَّ نادِها، فسوف تأتيكَ مسرعة. فاجتمعتْ أجزاؤها مرَّةً أخرى، وعادت إلى الحياةِ بإذنِ الله.

٢- أما موسى عليه السلام فقد سأل أكبر من ذلك، عندما طلب من الله تعالى أن يراه، من باب الاطمئنان، أو الاطلاع، أو الرغبة، أو الحب، ولكن الله تعالى بيَّن له استحالة ذلك في الحياة الدنيا على الأرض، وضرب له مثلًا حتى يتيقن، ويطمئن قلبه لذلك، كما في الآية الكريمة:

{وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الأعراف: ١٤٣].

أي: لما جاءَ موسى في الوقتِ المحدَّدِ له، وكلَّمهُ ربُّه، قالَ عليه السَّلام: ربِّي أرني أنظُرْ إليك، قال اللهُ تعالى: لا قدرةَ لك على رؤيتي في الحياة الدُّنيا، ولكن انظُرْ إلى جبلِ سَيناءَ الذي هو أقوى منك، فإذا ثبتَ في مكانهِ ولم يفتّتهُ التجلّي فسوف تراني. فلمَّا تجلَّى اللهُ سبحانهُ للجبلِ جعلهُ مدكوكاً متفتّتاً مستوياً بالأرض، وسقطَ موسى مغشيًّا عليه من هولِ ما رأى، فلمّا أفاقَ من غشيتهِ، قال تعظيماً لأمرِ الله: سبحانكَ ما أعظمك، إنِّي تبتُ إليك من أن أسألكَ من غيرِ إذن، أو أن أسألكَ الرؤية، وأنا أوَّلُ المؤمنين من بني إسرائيل.

٣- والحواريون من قوم عيسى عليه السلام، وهم صفوة من آمنوا به، طلبوا منه مائدة تنزل عليهم من السماء! ولما أراد رسولهم أن يثنيهم عن هذا الطلب، وبيَّن لهم أن ما رأوه من آيات كافٍ للإيمان، أعادوا السؤال: {قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ} [سورة المائدة: ١١٣] .

أي أنهم قالوا: ليس سؤالنا للمعجزة فقط، بل نحبُّ أن نأكلَ منها، وتطمئنَّ قلوبُنا بازديادِ اليقينِ إذا شاهدنا رزقاً يَنزلُ علينا من السَّماء، ونَعلَمَ عن مشاهدةٍ وعِيانٍ أنَّكَ صدَقتَ إيمانَنا بنبوَّتِك، ولِنَشهدَ أنَّها آيةُ صدقٍ من عند الله، ودلالةٌ ظاهرةٌ على صدقِ نبوَّتك، ونخبرُ بذلك من لم يَحضُرِ المائدة.

واستُجيب لهم...

٤- وكان إبراهيمُ مناظِراً لقومه، فأراد أن يعرِّفهم خطأهم وجهلهم وبطلان ما هم عليه من عبادةِ الكواكبِ والنُّجوم، بعد بيانِ بطلانِ إلهيَّةِ الأصنام، وأن القلوب لا تطمئن إلا بالتوجه إليه وحده، إيمانًا وعبادة:

{فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ} [سورة الأنعام: ٧٦].

فعندما بدأ ظلامُ الليلِ ينتشر، رأى كوكباً مضيئاً يطْلُع، فقالَ لقومه: هذا ربِّي، في زعمكم الباطل. فلمّا غابَ قال: لا أحبُّ الأربابَ المتغيّرين من حالٍ إلى حال، والربُّ دائمٌ لا يغرُبُ ولا يَزول.

{فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ} [سورة الأنعام: ٧٧]:

فلمّا رأى القمرَ طالعاً قد شقَّ الظُّلمةَ وانتشرَ ضوؤه، قال: هذا ربِّي، في زعمكم. فلمّا غابَ مثلَ غيابِ الكوكب، قال: إذا لم يدُلَّني ربِّي على الحقّ، فسأبقَى تائهاً ضائعاً، مثلَ القومِ الضالِّين الذين يعبدون ما لا تَعقِل.

{فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} [سورة الأنعام: ٧٨].

فلمّا رأى الشمسَ طالعةً قد بدَّدت ظلمةَ الليلِ من إشراقِها، قال: هذا ربِّي، في زعمكم، فهو أكبرُ من الكوكبِ ومن القمر. فلمّا غابت هي الأخرى قال: يا قوم، إنَّ هذه الكواكبَ والنُّجومَ ليست بأرباب، فهي تَطلُعُ وتَغيبُ ثمَّ تعودُ إلى ما كانت عليه، فهي كغيرها من الأجرام مسخَّرةٌ مقدَّرة، لا تملكُ لنفسها تصرُّفاً، وأنا بريءٌ من عبادتها، ومن إشراكِكم إيّاها في عبادةِ الله.

{إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [سورة الأنعام: ٧٩]:

إنّي قد توجَّهتُ بعبادتي وأخلصتُ ديني لمن خلق السَّماواتِ والأرض، وما فيهنَّ من أجرامٍ وأحياءٍ ونباتٍ وجمادٍ وبحار، مائلاً عن كلِّ باطلٍ وشركٍ في الأديانِ والعقائدِ الفاسدةِ إلى الحقِّ والتوحيدِ الخالص، ولستُ من المشركين في شيءٍ من الأقوالِ والأفعال.

البصيرة:

ومن بحث وتحرَّى الحجج والبراهين وتأكد كان على بصيرة، يعني على استقامة ونهج واضح، واطمأن بذلك قلبهُ وارتاحت نفسه، وهو ما يكون عليه المسلم المثقف الواعي، لا المقلد وضعيف الإيمان: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [سورة يوسف: ١٠٨]:

قل للنَّاسِ أيُّها الرَّسول: إنَّ هذا الذي أدعوكم إليه من الإيمانِ والتوحيد، هو المسلكُ الحقّ، والطريقُ المستقيم، الذي لا عوجَ فيه ولا شُبهةَ عليه، وأنا على نورٍ وهدايةٍ من اللهِ بما يوحيهِ إليَّ ويسدِّدني فيه، وعلى علمٍ ويقينٍ من ذلك، أنا والذين اتَّبعوا هذا الدِّينَ من المؤمنين، لا نلتوي ولا نزيغُ عنه، وأُجِلُّ اللهَ وأعظِّمُه، وأنزِّهُهُ عمّا ينسَبُ إليه من الشِّرك، وعمّا لا يليقُ بجلالهِ وكماله، ولستُ من المشركين في أمرٍ من أموري، بل أُخلصُ عملي لله، في صلاتي، ونُسكي، ومَحياي، ومماتي.

الزواج:

والزواج الحميد فيه اطمئنان كثير، فلا مجال لراحة النفس من دون امرأة، فإنها النصف الثاني من شخصية الإنسان، ولا تسكن غرائز النفس إلا بالزوجة. ثم يُرزَق منها بالذرية التي تملأ نفسه بهجة، فيعمل في إسعادهم، ولا يرى الحياة بدون راحتهم.

وقد وصف الله الاقتران بالمرأة بالسكن، وهو من أجمل تعابير الحب والمودة والطمأنينة وراحة البال.

قال سبحانه وتعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} [سورة الأعراف: ١٨٩] أي: ليألَفها ويأنسَ بها ويستقرَّ لها.

وقال سبحانه في آية أوضح من هذه: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة الروم: ٢١].

أي: ومن آياتهِ العظيمةِ أنْ خلقَ لأجلِكم إناثًا من جنسِكم، تتزوَّجون بهنّ، لتَميلوا إليهنَّ وتتآلفوا معهنَّ وتطمئنُّوا، وجعلَ بينكم وبينهنَّ محبَّةً ورأفة، ولو لم تكنْ بينكم صلةُ رَحِم. وفي ذلك آياتٌ وعِبَر، لمن أُوتيَ فكرًا ووعيًا، وتدبُّرًا وفهمًا.

ولا شكَّ أن هذا السكنَ يأتي من الأُنس والأُلفة والمحبة.

التعارف والتآلف:

وفي درجة أعلى من الحياة الأسرية نرى التعارف بين الشعوب والقبائل **والألفة** بينهم هي التي تدفع إلى أن يأمن بعضهم بعضًا، فتطمئن القلوب بذلك، وتأمن الغدر والغارات..

وكان بين الأوس والخزرج ما كان من حروب طويلة، فألف الله تعالى بينهم بأخوة الإسلام، فتحابوا بعد بغض وفرقة، واطمأن بعضهم إلى بعض.

يقول ربنا سبحانه وتعالى: {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة الأنفال: ٦٣].

أي أن الله هو الذي ألَّفَ بين قلوبِ المسلِمين، على ما كانَ بينهم في الجاهليَّةِ من عداوةٍ وضغينة قاتلة، ومن حميَّةٍ وعصبيَّةٍ عمياء، وخاصَّةً الأوسَ والخزرجَ من الأنصار، الذين كادتِ الحربُ أن تُهلكهم، فكانتِ الحروبُ بينهم لا تنقطع، فجمعهمُ الإسلامُ وصاروا إخوةً يتناصرون في الحقّ، ويتناصحون على الخير، ولو أنَّكَ أنفقتَ ما في الأرضِ من أموالٍ لتوثّقَ بينهم المحبَّة، وتؤلِّفَ بين قلوبهم، لما استطعت، لتناهي العداوةِ بينهم، وتمكُّنِ روحِ الانتقامِ فيهم، ولكنَّ اللهَ بلطفهِ ورحمتهِ أوجدَ هذا التآلفَ بينهم، ووطَّدَ روحَ المحبَّةِ والتآخي بينهم، وهو سبحانه قديرٌ على ذلك، عزيزٌ لا يصعبُ عليه شيء، حكيمٌ، يدبّرُ الأمورَ على أحسنِ وجه، وأفضلِ مَقام.

البيوت:

والبيوت سكنٌ لأصحابها، فلا يرتاح المرء إلا في بيته، وبين عياله. قال الله تعالى: {وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً} [سورة النحل: ٨٠].

أي: جعلَ الله لكم من البيوتِ التي تبنونَها وتأوون إليها سكنًا وطمأنينةً تأمنون فيها وترتاحون.

العيش الرغيد:

والرزق الحسن، والعيش الهنيء، يبعث على الاطمئنان أيضًا، ومنَّ الله بهذا على آدم وهو في الجنة، وحذَّره من الاستماع إلى الشيطان والاغترار بقوله، فإنه عدوه، ولا يحبُّ له الجنة!

{إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى} [سورة طه: ١١٨]: إنَّ لك في الجنةِ أن تكونَ في عيشٍ هنيءٍ رغيد، فلا تبقَى فيها جائعًا ولا تَشقى في طلبِ الرّزق، بل تأكلُ وتتلذَّذُ بأحسنِ الأطعمةِ والفواكِه، ولا تَعرَى فيها ولا تتعبُ في صنعِ الثِّيابِ والبحثِ عنها، بل تُكسَى أحسنَ اللِّباسِ وأجملَها.

{وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى} [سورة طه: ١١٩]: وإنَّ لك في الجنَّةِ ألاّ تبقى فيها عَطِشًا، بل تَرْوَى وتهنأُ بمائها وعصائرِها. ولا يُصيبك فيها حرٌّ فتُؤذَى، بل تكونُ في قصورٍ تجري من تحتِها الأنهار، وأشجارٍ ممدودةِ الظِّلال.

الفصل الخامس

من صفات المطمئنين

عدم الخوف والحزن من صفات المطمئنين:

يرد في كتاب الله تعالى في عقب أكثر من آية قوله سبحانه: {لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}، وفيها دلالة كبيرة على الاطمئنان. ومن بواعث ذلك:

١- اتباع هدي الله، قال الله تعالى مخاطبًا بني آدم: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [سورة البقرة: ٣٨]

أي: إذا اتبعتم هدى الله، فلا تَضِلُّون في الدنيا، ولا تَشقَون في الآخرة، ولا تحزنون على ما فاتَكم من أمور الدنيا، ولا تخافون ما ينتظركم يومَ القيامة.

وفي ذلك طمأنة للمؤمنين المتبعين دين الله، السائرين على الصراط المستقيم، في حياتهم الحاضرة، وفي مستقبلهم الأخروي، فإنه سبحانه يزيد المهتدين بهديه إيمانًا يقينًا وثباتًا على الحق: {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى} [سورة مريم: ٧٦].

٢- إنها الطاعة والإخلاص. قال الله تعالى: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ١١٢].

فالقاعدةُ في الأمر، هي أنَّ مَن أسلمَ وجهَهُ للهِ بالطَّاعة، واتَّبعَ هَدْيَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وأحسنَ في عملهِ بالإخلاص، فهذا أجرهُ مضمونٌ عند الله، فلا يخافنَّ على ما يستقبلُه، ولا يحزننَّ على ما تركَه.

ويثاب هذا المطيع بجزاء حسن: {لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى} [سورة الرعد: ١٨].

أي: للَّذين استجابوا لربِّهم إذ دعاهُم فأطاعُوه، الجزاءُ الحسنُ والحياةُ الطيِّبةُ يومَ القيامةِ في الجنَّة،

وجزاء هذه الطاعة عظيم، لا يتصور! قال ربنا سبحانه وتعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [سورة النساء: ٦٩].

أي: من عملَ بما أمرهُ الله فانقادَ لأمرِهِ ونهيه، واستجابَ لرسولهِ فيما بلَّغَ عنه، فأولئك المطيعون درجتُهم في الجنَّةِ مع الذين تفضَّلَ الله عليهم وأكرمَهم وجعلَهم خيرَ الناس، من أنبيائه، وعبادهِ الصدِّيقين والشُّهداء، والصَّالحين الذين تولاّهمُ اللهُ بالصَّلاحِ فصلَحتْ سرائرُهم وعلانيتُهم، وما أحسنَ هؤلاءِ رِفقة، ولطافةً وعِشرة.

٣- واتباع هدي الله يكون بالإيمان الصحيح، والعمل الصالح الموافق لشرع الله، قال سبحانه وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [سورة البقرة: ٦٢].

فهؤلاء لهم المثوبة الحسنَى بما قدَّموه، فلا خوفٌ عليهم فيما يستقبلونهُ من أحداث، ولا هم يحزنون على ما يتركونهُ ويَخلُفونه. فالعبرةُ بصحَّةِ العقيدةِ واتِّباعِ النبيّ في وقتِه. وهذا كلُّهُ قبل البعثة، أمَا وقد خُتمتِ النبوَّة، فلا دينَ إلا الإسلام: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [سورة آل عمران: ٨٥].

وقال الله تعالى مؤكدًا ذلك مرة أخرى، ومطمئنًا عباده الصالحين بمآلهم الحسن: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة:٢٧٧)

فالذين آمنوا وأتْبَعوا إيمانَهم بالأعمالِ الصالحة، فأطاعوا ربَّهم، وشكروا له نِعمهُ عليهم، ورَضُوا بما قسَمَ لهم من الحلال، وأحسَنوا إلى خَلقه، وداومُوا على صلواتِهم، وأعطَوا زكاةَ أموالِهم للفقراءِ والمحتاجين، لهم جميعاً الجزاءُ العظيمُ عند ربِّهم، ولا خوفٌ عليهم يومَ الحساب، في مقابلِ التخبُّطِ والهلع الذي يُصيبُ المرابي، ولا هم يَحزنون على ما فاتَهم من الدُّنيا، فهم في مكانٍ أجلّ، ونعيمٍ أعظم، وسعادةٍ لا توصفُ ولا تُقارَنُ بما في الدنيا.

فالإيمان، والصلاح، هما عنوان الفوز والفلاح عند الله تعالى، وهو الذي يطمئن إليه المؤمن، فلا استقامة إلا بهما، ولا تأتي التقوى إلا ممن اتصف بهما، ولا اطمئنان على نتيجة إلا بهما. إنه

ميزان المسلم في حياته أينما كان. قال سبحانه: {يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [سورة الأعراف: ٣٥].

وقال جلَّ جلاله: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [سورة الأنعام: ٤٨].

أي: من آمنَ بما جاءَ به الرسلُ وعملَ صالحاً موافِقاً للشَّريعة، فلهم الأمانُ يومَ الجزاءِ عندما يَخافُ الكفَرةُ الجاحِدون، ولا يُصيبُهمُ الهمُّ والغمُّ كما يُصيبُهم.

٤- وهذا كله يبعث على **الاستقامة**، ونتيجتها مطمئنة تمامًا، لأنها جودة عالية في الحياة، ترضي الربَّ سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [سورة الأحقاف: ١٣].

أي أنهم ثَبتوا على إيمانهم وإخلاصِهم، ولم يَخلِطوهُ بشركٍ ورياء، فلا يتوقَّعوا مكروهًا من أمرِ الآخرة، ولا هم يَحزَنون على ما خلَّفوا من أمرِ الدُّنيا.

إنهم يبشَّرون بالجنة: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} [سورة فصلت: ٣٠]

يبشَّرون بالجنَّةِ والنَّعيمِ الدَّائمِ الذي كان يَعِدُهم به اللهُ على ألسنةِ رسله.

وقد أمر الله عباده المؤمنين أن يتقوه ويستقيموا على صراطه المستقيم ليصلح حالهم، ويجزيهم على ذلك أجرًا عظيمًا:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً} [سورة الأحزاب: ٧٠]، أي: اخشَوا اللهَ وأطيعوهُ ولا تخالِفوا أمرَه، وقولوا قولاً مستقيمًا لا اعوجاجَ فيه، غيرَ جائرٍ ولا باطل.

{يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً} [سورة الأحزاب: ٧١]: فإنْ تَفعلوا ذلك يُثبكم ويزكِّ أعمالَكم الحسنة، ويضاعف الأجرَ لكم، ويتقبَّلْها منكم، ويوفِّقْكم للتَّوبة، ويغفرْ ذنوبَكم، ومن يُطِعِ اللهَ ورسوله فقد ظفرَ بالنَّعيمِ المقيم، وأُجيرَ من العذابِ الأليم.

٥- ومن آمن، وأصلح، واتقى، واستقام، فقد حاز الولاية، وظفر بالحسنى، فلا خوف على **أولياء الله:** {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [سورة يونس: ٦٢].

لا خوفٌ عليهم يومَ القيامةِ عندما يخافُ النَّاسُ ويَجزعون، بل هم آمِنون فرحون، لا يَعتريهم الهمُّ والحَزَن. فليطمئنوا.

ليطمئنوا بعد هذا الوصف الرائع، والجزاء الحسن، والبشرى الكريمة، من ربِّ العالمين لأوليائه المتقين: {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة يونس: ٦٤].

وبُشراهُم في الآخرةِ عندما تتلقّاهم الملائكة وتبشّرهم بالجنَّة: {بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة الحديد: ١٢].

ولا تغييرَ لقولِ اللهِ تعالَى، ولا خُلْفَ لوعده. فلتطمئنوا أيها المؤمنون الصالحون.

٦- والإنفاق في سبيل الله له أجر عظيم، إنه أسلوب عملي للتفاعل مع المجتمع الإسلامي، ومساعدة عباد الله الضعفاء والمتضررين، وإظهار لحبِّ دين الله تعالى بسرعة الاستجابة لندائه. على أن يكون الإنفاق عن طواعية وحبّ، لا منَّ فيه ولا أذى.

قال الله تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [سورة البقرة: ٢٦٢].

فهؤلاءِ لهم أجرهم الكبيرُ الموعودُ به عند ربِّهم، ولا يلحقهم مكروهٌ في الدارَيْن، ولا هم يأسفون على ما فاتهم من الحياةِ الدُّنيا وزهرتِها، فقد صاروا إلى ما هو أفضلُ منها. فليطمئنوا.

وأكد الله تعالى ذلك في آية أخرى، للتنبيه إلى فضل الإنفاق، وأهميته في الحياة الإسلامية، ثم بيان ثوابه العظيم عنده سبحانه، فقال جلَّ شأنه: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [سورة البقرة: ٢٧٤].

فلهم عند اللهِ الثوابُ العظيم، ولا خوفٌ عليهم يومَ الحسابِ عندما يخافُ البخلاءُ الأشحَّاء، ولا يحزنون إذا تأسَّف المفرطون المسرفون.

٧- والشهادة في سبيل الله أقصر طريق إلى الجنة، فاطمئنَّ أيها المجاهد إلى مستقبلك الأخروي الدائم، وجاهد بحق حتى تنالها، فإن مكانك عال عند الله.

وها هو ذا مجاهد شهيد يبعث لك سلامه مؤكدًا ذلك: {وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [آل عمران:١٧٠]:

فالشهداء فرحون مغتبطون بفضلِ اللهِ عليهم ورضائِهِ عنهم، ويستبشرون بإخوانهم الذين يُقتلون بعدهم في سبيل اللهِ ألاّ خوفٌ عليهم فبما يستقبلونه، فهم أمامَ نعمةٍ وفضلٍ يَفيضُ عليهم، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدُّنيا، فالآخرةُ لهم خيرٌ وأبقَى.

صفات أخرى:

والمؤمنون لهم صفاتٌ أخرى طيبة، هي بالأحرى صفات المطمئنين، التي تبعث على البشرى، وعلى الفوز والفلاح.

قال ربنا سبحانه: {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة التوبة: ١١٢].

فمن صفاتِ المؤمنين أنَّهم تائبون من الذنوب، صغيرِها وكبيرِها، حامدون لربِّهم على كلِّ حال، صائمون لله، والصَّومُ من أفضلِ الطاعات، فهو يقلِّصُ من شهواتِ الإنسانِ ويقرِّبه إلى الله، راكعون لربِّهم ساجدون، في الصَّلواتِ المفروضات، والركوعُ والسجودُ من أعظم أركان الصَّلاة، وفيهما أظهَرُ صورِ العبوديةِ لله، و "أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجد" كما في صحيحِ مسلم.

وهم يَنفعون الناسَ ويُرشدونهم إلى الإيمانِ والطَّاعة، ويحذِّرونهم من الشِّركِ والمعصية، ويأتمرون بأوامرِ الله، فيُحِلُّون ما أحلَّ، ويحرِّمون ما حرَّم. وبشِّرِ المؤمنين المتَّصفين بهذه الصِّفاتِ الجليلةِ بكلِّ خيرٍ وفلاح.

التقوى:

وهم المتقون، ومن كان تقيًّا فالله معه، ومن كان الله معه فليطمئن: {إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} [النحل: ١٢٨].

فالله وليُّ عبادهِ المتَّقين وراحمُهم، الذين يطيعونهُ ويخشونهُ في سرِّهم وعلانيتهم، والذين يُحسنون عملَهم مع الله، كما يُحسنون إلى خَلقهِ ويشفقون عليهم. وأولهم أنبياؤه المصطفون: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [سورة الأنبياء: ٩٠].

أي أنهم كانوا عابدين صالحين، يسارعون في عملِ الطَّاعاتِ وأنواعِ القُربات، حبًّا في اللهِ وما عنده مِنَ الثَّواب، وخوفًا ورهبةً من نقمتهِ وعذابه، وكانوا متضرِّعين إلى ربِّهم، مؤمنين مُخبِتين.

هم المتقون، الذين صبروا على دينهم وطاعةِ ربِّهم: {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} [سورة الرعد: ٣٥].

{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة النحل: ٣٢].

أي: هؤلاء المتقون يأتيهم ملائكةُ الموتِ فيقبِضون أرواحَهم وقد طابت نفوسُهم بلقاءِ الله، وطَهُرَت وزَكَت بالعلمِ والإيمان، قائلين لهم ترحيبًا بهم: "سلامٌ عليكم"، فلا خوفَ عليكم ولا أذًى يصيبُكم، ادخلوا الجنَّةَ جزاءَ عملِكم الطيِّبِ وصبرِكم على طاعةِ ربِّكم.

فالجنة للمتقين: {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً} [سورة مريم: ٦٣].

أي: نعطيها لمن كان تقيًّا من عبادِنا المؤمنين، الذين آثروا طاعةَ ربِّهم وصبروا عليها، ولم تَصرفهم مُغرِياتُ الدُّنيا عن الالتزامِ بالدِّين.

ومقامهم في الجنة مميز محترم: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ} [سورة الدخان: ٥١]، فهم في موضعٍ كريم، ومجلسٍ أمين، قد أَمِنوا من الحزنِ والخوف.

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ . فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ} [سورة القمر: ٥٤ – ٥٥]، إنهم في دارِ كرامة، ومكانٍ مَرْضيّ، ومَجلِسِ حقٍّ لا لغوٌ فيه ولا تأثيم، عند مَلِكٍ قادرٍ عظيم، لا يُعجزهُ أمرٌ من الأمور.

الفصل السادس

صور الاطمئنان

ومن أنواع الاطمئنان وصوره:

الرضى:

فإنه دليل على استقرار النفس من لواعجها، ويبدو هذا في حياة الإنسان من أمور كثيرة، حسب ما يناسبه في ظروفه.

وكان يعقوب نبيًّا، عليه الصلاة والسلام، ويهمه أمر الإيمان أكثر من كل شيء، وعندما حضره الموت لم يطمئن حتى سأل أولاده عن حالهم بعد موته، وهو يريدُ بذلك تقريرهم على التوحيدِ والإسلام، وأخذَ ميثاقِهم على الثبات عليهما، قال تعالى: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [سورة البقرة: ١٣٣].

ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم لم يطمئنَّ قلبه حتى أعاد الله وجهته إلى القبلة، وكان من قبل موجهًا إلى الصخرة من بيت المقدس، قال الله تعالى: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} [سورة البقرة: ١٤٤].

انشراح الصدر:

وانشراح الصدر من صور الاطمئنان ودلائل الرضا، فهو بهجة في النفس، وراحة في القلب، وتحلل من العُقد والمعوِّقات... إنه يبعث على الهناء والسرور، والطيب والرضى، والنشاط والانفتاح. ولذلك منَّ الله على عبده ونبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم بأنه شرح صدره، مع أمور أخرى يطيب بها قلبه، في الآيات ١ – ٤ من سورة الشرح:

{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}: أمَا جعَلنا صدركَ فسيحًا رحيبًا، رضيًّا مطمئنًّا، بالإيمانِ والنبوَّة، والعلمِ والحكمة؟

{وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ}: وغفرنا لك ما سلفَ منك في الجاهليَّة. أو خفَّفنا عنك حِملَك، بأن قوَّيناكَ على تحمُّلِ أعباءِ الرِّسالة،

{الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ}: الذي أثقلَ ظهرك، وشقَّ عليكَ حَملُه؟

{وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}: ورفعنا ذكركَ بالنبوَّةِ في الوجودِ كلِّه، فأرسلناكَ للنَّاسِ كافَّة، وأعلَينا قَدركَ في القرآن، وجعلنا اسمكَ مقرونًا باسمِ اللهِ تعالَى في شهادَةِ التَّوحيد، وتُذكَرُ في كلِّ أَذانٍ وإقامة، وفي الخُطبةِ على المنابر، وفي الصَّلوات، حتَّى قيامِ السَّاعة.

مجموع أمور:

ودعا موسى عليه السلام ربَّه جملة أدعية رأى فيها راحة للنفس، واطمئنانًا في القلب، وقوة له على الانطلاق لخدمة رسالته، وهي الآيات ٢٥ – ٣٥ من سورة طه:

{قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي}: اللهمَّ وسِّعْ صدري، وألهِمني الصَّبر، وجمِّلني بالحِلم، وثبِّتني بالحسنى.

{وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي}: وسهِّل عليَّ ما أمرتني به، لأتحمَّلَ مشاقَّ الدَّعوة، وأؤدِّيَها كما تحبّ.

{وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي}: وفُكَّ حُبْسةً من لساني. وكانت في لسانهِ عُقدة.

{يَفْقَهُوا قَوْلِي}: ليَفهموا بذلك كلامي.

{وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي}: واجعلْ لي مساعِدًا من أهلي، يتحمَّلْ معي أعباء الدَّعوة.

{هَارُونَ أَخِي}: وهو هارونُ أخي. وكان أكبر من موسى، وأفصحَ منه لسانًا.

{اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي}: قَوِّ به ظهري، وأحكِمْ به عزيمتي.

{وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي}: وأشرِكْه في الرِّسالةِ والتَّبليغ.

{كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً}: كي نوحِّدَك ونقدِّسكَ كثيرًا.

{وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً}: ونذكركَ كثيرًا، بدعوتِنا النَّاس، وأدائنا الرِّسالة، وبطاعتِكَ وعبادتِك.

{إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً}: إنَّك كنتَ عالِمًا بأحوالِنا وضعفِنا، وبعِظم ما دعوتَنا إليه، وإنَّهُ لا توفيقَ إلاّ بك، ولا تأييدَ إلاّ منك.

الإيمان والعمل الصالح:

ومن آمن وعمل صالحًا رضيَ الله عنه؛ لأنهم أحسنُ الخليقةِ أعمالاً. ورضوا هم عن ربهم بما أثابهم عليه:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ . جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ} [سورة البينة: ٧ – ٨]:

ثوابُهم على إيمانِهم وطاعتِهم يومَ القيامةِ جنَّاتُ إقامةٍ دائمة، تجري من تحت أشجارِها الأنهار، خالدين فيها، لا يَبغون عنها تحوُّلاً، لِما فيها من السَّعادةِ والنَّعيم. رضيَ اللهُ عنهم، ورضوانهُ سبحانه أعلَى ما أُوتوهُ من النَّعيم. ورضُوا عنه فيما منحَهم من فضلهِ العميم، ممَّا لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلبِ بشَر. وهذا الثَّوابُ الجزيل، هو لمن خشيَ اللهَ في الدُّنيا ولم يخالفْ أمره.

إنها النفس (المطمئنة)، الراضية المرضيَّة! عملت خيرًا، فجوزيت خيرًا أعظم، من ربٍّ كريم، رحيم بالمؤمنين:

{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً} [سورة الفجر: ٢٧ – ٢٨]:

أيتُها النَّفسُ المؤمنةُ بما قال الله، المصدِّقةُ بما وعدَ به، السَّاكنةُ إلى حبِّه، المطمئنَّةُ إلى ذِكره، ارجِعي إلى ما أعدَّهُ اللهُ لكِ من الثَّوابِ الجزيلِ في جنَّتِه، راضيةً بما أعطاكِ من النَّعيم، مرضيَّةً عند اللهِ بما قدَّمتِ من طاعةٍ وعملٍ صالح.

الأمن والعافية:

والأمن والسلام من مظاهر الرضى، ففيهما راحة البال، واطمئنان القلب، حالًا أو في المآل. قال الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [سورة الأنعام: ٨٢].

أي: إنَّ الذين آمنوا حقَّ الإيمان، ولم يَخلِطوا إيمانَهم بشائبةٍ من شرك، فهم الآمنون من عذابِ الله يومَ القيامة، وهم المهتدون إلى العقيدةِ الصَّحيحة، ومَن عَداهم في ضلال، كمن ادَّعى الإيمانَ وهو يتَّخِذُ الطَّواغيتَ شفعاءَ إلى الله، ويَعتبِرُ ذلك من تتمّات الإيمانِ بالله!

وكتب الله الأمن والسلام والعافية لنبيه نوح عليه السلام من الطوفان وآثاره، وبارك في موطنه الجديد وفي ذريته. قال الله تعالى: {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ..} [سورة هود: ٤٨]:
قال اللهُ لنوح: اِنزِلْ من السَّفينةِ بسلامةٍ وأمنٍ من عندنا، ودعاءٍ لك بالخيرِ والبركة، وعلى أممٍ مؤمنةٍ متناسلةٍ من أولادِكَ إلى يومِ القيامة...

والأمنُ من الخوف بشكل عام يدلُّ على السلام والراحة والاطمئنان، وقد ذكَّر الله به قريشًا ليعرفوا نعمة الله عليهم، في رحلتيهم التجاريتين الصيفية والشتوية في كل سنة:
{الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ} [سورة قريش: ٤]
أي: أنعمَ عليهم بنعمةِ الأمانِ فيهما، فلا يتعرَّضُ لهم أحدٌ في أسفارِهم الطَّويلة، ولا يُغِيرُ عليهم أحدٌ في بلدِهم، وهم يرَون النَّاسَ يُتخَطَّفون من حولِهم!

والله تعالى قادر على أن يحوّل المصائب والمعضلات في أحلك الظروف إلى أمن وسلام وعافية واطمئنان، كما جعله لنبيه وخليله إبراهيم عليه السلام، عندما أوقد قومه نارًا عظيمة ليحرقوه ويتخلصوا منه لدعوته إياهم إلى التوحيد والتخلي عن عبادة الأصنام، فأمر الله النارَ ألّا تحرقه، بل حوَّلها إلى برد وسلام: {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ} [سورة الأنبياء: ٦٩ – ٧٠]
أي: أرادوا أن يمكروا به فيُحرقوهُ ليطفئوا بذلك نور الحقّ، ولكنَّ الله هو الذي مكرَ بهم، وجعلهم خائبين مغلوبين.

وكما نجَّى نبيَّه يونس عليه السلام من الغمِّ والكرب وهو في بطن الحوت وأعاده إلى الحياة ليكمل مسيرته النبوية والدعوية: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الأنبياء: ٨٨].

السلام:

والسلام من الله على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام في غير موضع من القرآن الكريم، وفيه قمة الاطمئنان. فسلام على يحيى: {وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً} [سورة مريم: ١٥].

أي: سلامٌ على نبيِّ اللهِ يحيى وأمانٌ له يومَ وُلِد: مِن أن ينالَ منه الشَّيطانُ شيئًا، ويومَ يموت: يَسلَمُ من عذابِ القبرِ ووحشته، ويومَ يُبعَثُ حيًّا: يأمَنُ من هولِ القيامةِ وعذابِ النَّار.

وسلام على عيسى المسيح: {وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً} [مريم: ٣٣].

أي: السَّلامُ والأمانُ عليَّ يومَ وُلِدتُ: فلم يَنَلني الشَّيطانُ بسوء، ويومَ أموتُ: أَسلَمُ من عذابِ القبر، ويومَ أُبعَثُ حيًّا: أَسلَمُ من هولِ القيامةِ وعذابِ جهنَّم.

{وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} [سورة الصافات: ١٨١]، أي: سلامٌ من اللهِ وأمانٌ منه لأنبيائهِ المرسَلين، الفائزين بالأجرِ العظيم.

البيت الحرام:

وجعل الله بيته أمنًا: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً} [سورة البقرة: ١٢٥]، فلا يَعتدي عليهم أحدٌ وهم هناك، وحتَّى الحيواناتُ البريَّةُ في أمانٍ هناك فلا تُصاد.

وفي خطاب لقريش وأهل مكة: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} [سورة العنكبوت: ٦٧]:

ألم يشاهدوا ويَعتبروا كيف جعلنا بلدَهم مكَّةَ مكانًا آمِنًا من القتلِ والأسر، والسَّلبِ والنَّهب، والنَّاسُ من حولِهم يَسبي بعضُهم بعضًا، ويُغِيرون ويَنهَبون ويتقاتلون؟

وفي آية أخرى: {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا} [آل عمران: ٩٧] أي: ومن دخلَهُ فقد أمِن، فلا يُعرَضُ له بسوء. فيطمئن مَن قصده، ويعلم أنه لن يُغدَر به.

الأمان والسلام في الجنة:

وأهل الجنة في أمان: {ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ} [سورة الحجر: ٤٦]، فلا آفةَ تُصيبُكم، ولا موتَ يَخترمُكم، ولا خوفَ يعتريكم.

ورزقهم لا ينقطع: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ} [سورة ص: ٥٤].

فهم خالدون في الجنة، لا يموتون: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} [سورة الزمر: ٧٣].

أي أن خزنة الجنة يقولون لأهلها: سلامٌ عليكم: أنتم في أمانٍ من كلِّ مكروه، طابت أعمالُكم، فطبتم نفسًا، وطابَ لكم المقام، فادخلوا الجنَّةَ ماكثين فيها أبدًا، لا موتَ فيها، ولا تحوُّلَ عنها.

والسلام هو تحية الله تعالى لأهل الجنة. وما أروعها، وما أجلَّها من تحية!

{تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً} [سورة الأحزاب: ٤٤].

أي أن التحيَّة التي يحيَّون بها يومَ لقائه هو قولهُ جلَّ جلالهُ لهم: سلَام، ويعني: سلِمتُم من كلِّ مَخُوف، وهَنِئتم بكلِّ خير.

وفي سورة يس: {سَلاَمٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ}، أي أن الله يحيّيهم تحيَّةً مباركةً من عندهِ ويقولُ لهم: سَلام. وفيه من أمانِ اللهِ والاطمئنانِ والرِّضا ما فيه.

وليتصور كل مسلم شعوره وطيب نفسه وقد حيّاهم ربُّهم بالسلام والأمان، وهنّأهم بطيب المقام!

الله اجعلنا منهم.

حبُّ الله:

وحبُّ المؤمنين لربهم عظيم، إنه يملأ قلوبهم رضًى ونورًا. يقول ربنا سبحانه: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ} [سورة البقرة: ١٦٥].

أي أن المؤمنين يعبدون اللهَ على نورٍ من ربِّهم وبرهان، ويحبُّونه حبًّا خالصاً لا شائبةَ فيه، وهم أكثرُ حبًّا له من حبِّهم أنفسَهم وما يملكون؛ لتمامِ معرفتِهم به، وتوحيدِهم وتعظيمِهم له، ولجوئهم إليه وحُسنِ توكُّلِهم عليه.

والله سبحانه تعالى يحبهم، ويجعل لهم مودَّة، فيغرس حبَّهم في قلوب عباده الصالحين: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً} [سورة مريم: ٩٦].

الفتح والنصر:

واعتُبر صلح الحديبية نصرًا وفتحًا ظاهرًا، لِما حصل فيه من المصلحةِ للمسلمين، فقد تمكَّنَ الإسلامُ من قلوب النَّاسِ بعد ذلك، وزادَ عددُهم كثيرًا، وتضاعفت قوَّتُهم. وكان الصحابة رضوان الله عليهم يظنون أنهم مقبلون على فتح مكة، فلما رأوه صلحًا تفاجأوا! فربط الله على قلوبهم، وأنزل السكينة عليهم، وطمأنهم أن الفتح سيتم في وقت آخر، وبشكل أسهل، وأن الصلح هو خير لهم الآن، فهو صلح وفتح معًا.

قال ربنا سبحانه وتعالى: {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ} [سورة الفتح: ٤].

أي: هو الذي أنزلَ الطُّمأنينةَ والثَّباتَ في قلوبِ المؤمنين الذين شهدوا صلحَ الحُدَيبية، فاستجابوا لحكمِ الله ورسولِه، واطمأنَّت قلوبُهم به؛ ليزدادوا يقينًا مع يقينهم، برسوخ العقيدةِ والرِّضا بحُكمِ اللهِ ورسولهِ في قلوبِهم.

وقال الله تعالى بعد آيات من هذه: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً} [سورة الفتح: ١٨].

أي: لقد رضيَ اللهُ عن المؤمنين الذين شهدوا معك الحُدَيبية، إذ يبايعونكَ تحت شجرة سَمُرَة بأرض الحُدَيبَة، على مناجزةِ قريشٍ وعدمِ الفرارِ من المعركة، إذا حدثتِ الحرب، فعلمَ ما في قلوبِهم من الصِّدقِ والوفاءِ في مبايعتِهم، فأنزلَ الطُّمأنينةَ والأمنَ عليهم، وثبَّتَهم على الرِّضا والقبول، وجزاهُم فتحًا قريبًا ينالونَه، وهو الصُّلح، الذي تبعهُ خيرٌ عظيم، فأسلمَ كثيرٌ منَ النَّاس، وانتشرَ العلمُ والإيمان.

الوحدة والتعاون على الخير:

والوحدة من مظاهر الاطمئنان، فإن من كان قويًّا خافه عدوه ولم يتعرض له، ومن كان ضعيفًا أو متفرق القوى، أصبح وأمسى خائفًا على نفسه وماله، ولم يطمئن.

قال ربنا سبحانه: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [سورة آل عمران: ١٠٣].

أي: تمسَّكوا بعهدِ اللهِ والقرآنِ الذي أنزلَهُ عليكم، الذي به هُدِيتم، وكونوا جميعاً إخوةً مجتمعين متحابِّين، ولا تختلفوا مثلَ اليهودِ والنصارى فتتفرَّقوا وتتباغضوا، واذكروا فضل اللهِ عليكم عندما كنتم أعداءً يقتلُ بعضكم بعضاً في حروبٍ مستمرَّة، فجمع بين قلوبكم بهذا الدِّينِ الحقّ، فصرتم بفضلهِ ونعمتهِ إخواناً متآلِفين، ينصرُ بعضُكم بعضاً، ويعطِفُ عليه ويرحمُه، بعد أن كنتم على وشكِ الدُّخولِ في النارِ بسببِ كفركم، فأنقذكم اللهُ بهذا الدِّينِ وهداكم للإيمان، وأنقذكم من النار، ويبيّن اللهُ لكم دلائله لتَثبتوا على الهداية، وتزدادوا إيماناً.

وقال الله تعالى في آية أخرى: {وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [سورة الأنفال: ٤٦].

أي: لا تختلفوا فتَجبُنوا وتَضعُفوا أمامَ أعدائكم، ويكونُ ذلك سبباً لتخاذلكم وفشلكم وذهاب قوَّتكم.

ونبَّه الله عباده المؤمنين إلى أنهم يبقون الأقوى والأعلى ما داموا متمسكين بإيمانهم حق الإيمان.

قال سبحانه: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [سورة آل عمران: ١٣٩]

أي: لا تَضعُفوا ممّا أصابَكم، ولا يَدخلنَّ الوهنُ إلى قلوبكم، ولا تحزنوا على ما فاتكم، فأنتم الأعلون بدينكم، وأنتم الغالبون، ما دمتم مؤمنين، فإنَّ الإيمانَ يوجبُ الثقة بالله، فلكم النصرُ والغلبة، وشهداؤكم في الجنَّة، وأمرُ الكافرين إلى الدَّمارِ كما كان حالُ أسلافهم، ومصيرُ قتلاهم إلى النّار.

ولا تأتي وحدة الصف وقوة الجمع إلا من الائتلاف واتباع الصراط المستقيم:

{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سورة الأنعام: ١٥٣].

أي: قلْ أيُّها النبيّ: إنَّ الإسلامَ هو صراطي المستقيمُ الذي لا اعوجاجَ فيه، فهو ما أسلكهُ وأدعو إليه، فاتَّبِعوا تعاليمَهُ واعملوا به، ولا تتَّبعوا الضَّلالات، والبدعَ والشُّبهات، فتُفرِّقَكم حسَبَ تفرُّقها عن دينِ الله. هذا ما أمركم اللهُ به، لتبتعدوا عن المراءِ والخصومات، والاختلافِ والفرقة، التي أهلكت مَن قبلَكم.

العدل:

والعدالة تجلب الرضى، فإن المرء إذا لمس سيادة العدل أمن على نفسه وماله، وعلم أن حقوقه محفوظة لا تمس، ولهذا أمر الله الناس بالعدل حتى يطمئنوا، قال سبحانه: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [سورة النساء: ٥٨].

والعدل هو الإنصاف والتسوية، كما أفاده صاحب "روح البيان" عند تفسير الآية.

والعدل يدخل في جميع المعاملات. وهو حسن في الفطرة؛ لأنّه كما يصدُّ المعتدي عن اعتدائه، كذلك يصدّ غيره عن الاعتداء عليه(٩).

وبيَّن العلّامة الطاهر بن عاشور ميزة تشريعات الأديان السماوية عن غيرها من القوانين الوضعية التي تدَّعي العدالة، فقال في تفسيره: أعلى القوانين هي الشرائع الإلهية، لمناسبتها لحال من شُرعت لأجلهم، وأعظمها شريعةُ الإسلام، لابتنائها على أساس المصالح الخالصة أو الراجحة، وإعراضها عن أهواء الأمم والعوائد الضالّة، فإنّها لا تعبأ بالأنانية والهوى، ولا بعوائد الفساد، ولأنّها لا تُبنى على مصالح قبيلة خاصّة، أو بلد خاصّ، بل تُبتنى على مصالح النوع البشري وتقويمه، وهديه إلى سواء السبيل(١٠).

وحذَّر الله تعالى المسلمين من الانحراف عن العدل مهما بلغ بهم الأمر. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ...} [سورة النساء: ١٣٥].

---

(٩) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

(١٠) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

أي: كونوا عادلين في أموركم دائماً، لا يصرفكم عن العدلِ صارف، وابتغوا بذلك وجهَ الله، لا غرضاً دنيويًّا ومصلحةً شخصيَّة، سواءٌ كان قيامُكم بالعدلِ أو قولُكم الحقَّ لصالحكم أو لغيرِ صالحكم..

صلاح البال:

وصلاحُ البال من صور الاطمئنان، ففيه راحةٌ وسكينة، واستقامةٌ في المنهج وثقةٌ بالمصدر، في الدِّينِ والدُّنيا بالتَّوفيقِ والتَّأييد، والهدايةِ والسَّداد، ولا يكون هذا إلا لأهل الحق:

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} [سورة محمد: ٢].

ومن صلاح الحال تهيئة الأمور وتحسينها حتى تطمئن القلوب وترضى النفوس:

{وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} (سورة محمد: ٤ – ٦]

فالشُّهداءُ يَهديهمُ اللهُ يومَ القيامةِ إلى ثوابِ أعمالهم، من الإكرامِ العظيمِ والنَّعيمِ المقيم، ويُصلِحُ أمرَهم وحالَهم، فيُرضي خصماءهم في الدُّنيا مقابلَ حقوقِهم عليهم، ويَقبلُ أعمالَهم. ويُدخِلُهم الجنَّةَ كما وعدَهم بها، وقد عرَّفَهم بما فيها، وبيَّنَ لهم منازلَهم فيها، وهداهم إليها.

النوم والنعاس:

والنوم آية من آيات الله تعالى، جعله سبحانه راحة لعباده مما يصيبهم من التعب والإرهاق والقلق، وحتى من الخوف والأحزان والمصائب، فإن المرء إذا نام بعد حلول بلاء تغيرت حالته النفسية.

يقول ربنا سبحانه وتعالى: {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً} [سورة النبأ: ٩]

أي: وجعلنا النَّومَ سكونًا وراحةً لأبدانِكم.

وفي غزوة بدر كان عدد المسلمين قليلًا، في مقابل كثرة من جند المشركين، فتوجسوا خيفة، وانتابتهم هواجس، لكن الله ألقى عليهم برحمته نعاسًا أمناً منه لِما حصلَ لهم من الخوف، فتغيَّرت حالهم بعده، ونشطت نفوسهم!

قال الله تعالى: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ} [سورة الأنفال: ١١].

كما أصاب المسلمين شدة وكرب عندما تحولت حالة الحرب في أُحد من نصر إلى هزيمة، واغتموا كثيرًا، فأراد الله أن يخفف ما بهم، فأرسل سلطان النعاس عليهم، وهو أول النوم، فشعروا برغبةٍ شديدة في النوم.. قال الله تعالى:

{ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ} [سورة آل عمران: ١٥٤].

أي: منَّ اللهُ عليكم بعد هذا الحزنِ بنعاسٍ يَغشى جماعةً منكم وهم في لباسِ الحرب، ليكونَ سكَناً لهم وأمناً. وطائفةٌ أخرى لا يغشاهمُ النعاسُ من القلقِ والخوفِ والجزعِ (وهم المنافقون) تهمُّهم نجاةُ أنفسهم فقط، فذهبت بهم نفوسُهم إلى ظنونٍ سيِّئة لا توافقُ الحقّ...

سكون الليل:

والليل كذلك آية عظيمة، وقد جعله الله مظلمًا ليهدأ فيه الناس وينامواحتى يرتاحوا من تعب النهار. قال سبحانه: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} [سورة يونس: ٦٧].

وقال في آية أخرى: {أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة النمل: ٨٦].

أي: ألم ينظروا ويتفكَّروا كيف خلقنا اللَّيلَ وما فيه من سكونٍ وظلام، ليستريحوا من تعبِ النَّهارِ وينامواحتى...

راحة الوالدين والأسرة:

ولا تطمئن الأمُّ ولا يرتاح لها بال إلا إذا كانت بين أولاها، لقوة عاطفتها وحنانها إليهم، ولذلك جزعت أم موسى على ولدها بعد أن ألقته في النيل، حتى ربط الله على قلبها فسكنت:

{وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة القصص: ١٠].

أي: أصبحَ فؤادُ أمِّ موسى خاليًا إلاّ من ذكرِ موسى وهمِّه، وكادت أن تذكرَ حقيقةَ أمرِه من شدَّةِ قلقِها عليه، لولا أن ثبَّتنا قلبَها وألهمناها الصَّبرَ وأنزلنا عليها السِّكينة، لتكونَ منَ المصدِّقين بما وعدناها به، من ردِّ ولدِها إليها.

وكذلك الأسرة كلها.. الآباء والأمهات وأبناؤهم جميعًا. وهذا ما يجري في الجنة أيضًا، عندما يجازي الله تعالى عباده المؤمنين بالجنة، يلحق بهم ذريتهم إكرامًا لهم، وحتى تطمئن قلوبهم، ويسعدوا السعادة التامة بها:

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ} [سورة الطور: ٢١].

أي أن المؤمنين الذين اتَّبعَتهُم ذرّياتُهم في الإيمان، ألحقناهم بآبائهم فكانوا معهم في الجنَّة، وإن كانوا دونهم في العمل، إكرامًا لهم، ولتقرَّ أعينُهم بهم، وما نقَّصنا من عملِ الآباءِ شيئًا بهذا الإكرام.

الفصل السابع

مقارنات

مقارنات تبيّن أهمية الاطمئنان وفضله:

الأشياء بضدّها تبدو وتتميز أكثر. فلا يستوي المؤمن والكافر في إيمانيهما من حيث الاطمئنان، ولا في أمور الحياة عامة، فالمؤمن يأخذ من معين الوحي الذي لا يعتريه شك، فيطمئن إلى المصدر، ويستريح. والكافر مضطرب وقلق في أفكاره ومصادره، قد لا يستقر على رأي..

ومن هذه المقارنات قوله سبحانه وتعالى في بيان الفرق بين المؤمن والكافر:

{أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا} [سورة الأنعام: ١٢٢].

أي: هل يكونُ من كانَ ميتاً وهالكاً بالكفرِ والضَّلالة، فأحييناه قلبهُ بالإيمان، ودلَلناهُ على طريقِ الحقِّ والصَّواب، وجعلنا له القرآنَ نوراً يستضيءُ به في الحياة، ليعرفَ طبيعةَ الأشياءِ في الحياة، وتنكشفَ له حقائقُ الوجود، ويعرفَ كيف يتصرَّف، كالذي يعيشُ في ظلامِ الكفرِ وغياهبِ الجهلِ ومهاوي الضَّلال، لا يهتدي منها إلى نورٍ ليَخرجَ منها، ويَبقى في حَيرةٍ وتردُّدٍ، وضيقٍ وحرج؟ بل شتّانَ ما بينهما.

والمؤمنون تطمئن قلوبهم بالإيمان، والكافرون يطمئنون بلذائذ الدنيا وحدها، فلا يرون غيرها!

{إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ} [سورة يونس: ٧].

أي: إنَّ الذين كفروا بيومِ البعث، وقالوا لا جزاءَ على الأعمال، واكتفَوا بما هم فيه وعليه من الحياةِ الدُّنيا ومظاهرِها، وركنوا إليها دون أن يفكّروا بثوابٍ أو عقاب، وغفلوا عن آياتِ اللهِ المبثوثةِ في الكون، ولم يتفكَّروا فيها كما ينبغي، ولم يعرفوا الحكمةَ من خَلقِهم ومن خَلقِ الدنيا كلِّها، {أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [سورة يونس: ٨].

ولكن: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [سورة يونس: ٩].

أي: إنَّ الذين آمنوا بما يجبُ الإيمانُ به، وعملوا الأعمالَ الصالحة، الموافقةَ للشَّريعة، الخالصةَ لوجهِ الله، يُرشدهم ربُّهم بسببِ إيمانِهم المقرون بعملِهم إلى جنّاتٍ يلقَون فيها السَّعادةَ والنَّعيمَ المقيم، تجري من خلالِها الأنهار، ممّا يزيدُ في سعادتِهم ونعيمِهم.

أهم المصادر

تفسير التحرير والتنوير/ محمد الطاهر بن عاشور.

روح البيان/ إسماعيل حقي.

روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني/ محمود الآلوسي.

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير/ محمد بن علي الشوكاني.

في ظلال القرآن/ سيد قطب

محاسن التأويل/ محمد جمال الدين القاسمي.

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/ عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي.

الواضح في التفسير/ محمد خير رمضان يوسف.

الصحيحان وبعض السنن.

معاجم لغوية.

فهرس الموضوعات

مقدمة ٣

الفصل الأول

معنى الاطمئنان

معنى الاطمئنان ٥

الفصل الثاني

الاطمئنان للقلوب المؤمنة

الاطمئنان للقلوب المؤمنة ٧

الفصل الثالث

بواعث الاطمئنان

الله تعالى ١٢

القرآن ١٣

أمثلة تبعث على الطمأنينة ١٨

البشرى ٢٠

الجهاد ٢٣

ولاية الله ٢٤

الثبات ٢٥

رحمة الله ٢٥

صلاة الله وملائكته ٢٦

عدالة الله ٢٧
رضا الله ٢٨
الحق ٢٩
غفران الذنوب ٢٩
العبودية ٣٠
الثواب الجزيل ٣٠
الهدية والخبر السار ٣٢
المطر ٣٣

الفصل الرابع

العون على الاطمئنان

ذكر الله ٣٤
التزكية ٣٨
الصبر على الطاعة ٣٨
التوكل ٤٠
الشكر ٤١
الدعاء ٤١
التحري والاطلاع ٤٢
البصيرة ٤٤
الزواج ٤٥
التعارف والتآلف ٤٥

البيوت ٤٦
العيش الرغيد ٤٦

الفصل الخامس

صفات المطمئنين

عدم الخوف والحزن ٤٨
صفات أخرى ٥٢
التقوى ٥٢

الفصل السادس

صور الاطمئنان

الرضى ٥٤
انشراح الصدر ٥٤
مجموع أمور ٥٥
الإيمان والعمل الصالح ٥٦
الأمن والعافية ٥٦
السلام ٥٨
البيت الحرام ٥٨
الأمان والسلام في الجنة ٥٩
حبّ الله ٥٩
الفتح والنصر ٦٠
الوحدة والتعاون على الخير ٦١

العدل ٦٢
صلاح البال ٦٣
النوم والنعاس ٦٣
سكون الليل ٦٤
راحة الوالدين والأسرة ٦٤

الفصل السابع

مقارنات

مقارنات ٦٦
أهم المصادر ٦٨
الفهرس ٦٩